

سُورَةُ النِّسَاءِ

هَنْدَسَةُ الْعَدْلِ وَبِنَاءُ الْإِنْسَانِ الْمُؤْتَمَنِ



رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ النِّسَاءِ

هَنْدَسَةُ الْعَدْلِ وَبِنَاءُ الْإِنْسَانِ الْمُؤْتَمَنِ

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة تمهيدية

سورة النساء: حين يدخل العدل إلى الغرف المغلقة

ليست الحضارة ما تشيّدُهُ أيدي الأقوياء لأنفسهم، بل ما تمنعه قوتهم من السقوط فوق الضعفاء.

فقد تتسع المدن، وتعلو البنايات، وتكثر القوانين، ويزدحم الخطاب بكلمات الحرية والعدالة، ثم يبقى يتيمٌ لا يجد من يصون ماله، وامرأةٌ تُحرم من نصيبها، وفقيرٌ لا يبلغ حقه، ومظلومٌ يخشى أن يجهر بمظلمته، ومستضعفٌ تتردد استغاثته في فضاء لا يجيبه أحد. وعندئذ لا تكون الحضارة قد فشلت في جانب صغير من بنائها؛ بل تكون قد أخفقت في امتحانها الأخلاقي الأكبر.

من هنا تفتح سورة النساء أبوابها.

لا تبدأ من القصور، ولا من خزائن الدولة، ولا من ميادين الحرب؛ تبدأ من الحقيقة التي تسبق الأنساب والألقاب والطبقات: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ).

إنها تعيد البشرية إلى رحمها الأول قبل أن تضع لها أحكامها؛ لأن العدل لا يستقر في السلوك حتى يستقر أولاً في التصور. فإذا عرف الإنسان أن الناس جميعاً خرجوا من نفس واحدة، لم يعد الاختلاف في الجنس أو النسب أو المال مبرراً لنقص الكرامة، ولم يعد ضعف الآخر دليلاً على أن حقه أخف وزناً.

لم تقل السورة: خُلِقَ الأقوياء من أصل، والضعفاء من أصل آخر. لم تمنح الرجل جوهراً إنسانياً زائداً، ولم تجعل المرأة تابِعاً طارئاً على قصة الوجود. الكل من نفس واحدة، والاختلافات التي جاءت بعد ذلك لا تنقض وحدة الأصل، بل تجعل العدالة هي الفن الأخلاقي الذي يدير هذا التنوع تحت عبودية الله.

ولهذا كان النداء الأول للناس كافة، وكان الأمر الأول بالتقوى. فالسورة لا تريد أن تقيم العدل على خوف الإنسان من القانون وحده؛ إذ يستطيع الذكي أن يتحايل على القانون، ويستطيع القوي أن يمنع الأدلة، ويستطيع الظالم أن يغلق الأبواب قبل أن يبدأ جريمته. إنها تريد أن تضع في القلب رقيباً لا يغيب: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا).

هذه الكلمة هي المفتاح الخفي للسورة كلها.

فكثير من الحقوق التي تحميها سورة النساء تقع في أماكن لا تبلغها أعين الناس. من يرى الوصي حين يخلط مال اليتيم بماله؟ ومن يعرف حقيقة الرضا حين تتنازل المرأة عن شيء من صداقها؟ ومن يسمع ما يُقال خلف أبواب البيوت؟ ومن يزن ميل القلب بين الزوجات؟ ومن يكشف الشاهد حين يلوي الحقيقة دون أن ينطق بالكذب الصريح؟ ومن يعرف المنافق حين يصف جسده مع المؤمنين بينما يتحرك قلبه وراء مصلحته؟

هناك، في المواضع التي تنتهي عندها رقابة البشر، يبدأ أثر الإيمان بالرقيب.

سورة الضعفاء أم سورة الأقوياء؟

سميت السورة بسورة النساء وامتألت بذكر اليتامى والمساكين والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان. وقد يبدو لأول وهلة أنها سورة تتحدث إلى الضعفاء عن حقوقهم؛ غير أن القراءة المتأملّة تكشف أنها تتحدث إلى الأقوياء عن مسؤولياتهم.

إنها لا تقول لليтим كيف يحرس ماله، بل تقول للوصي: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾.

ولا تستجدي من الرجل صدقةً يمنحها للمرأة، بل تعلن: ﴿وَاللِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾.

ولا تسأل المستضعفين لماذا لم ينجوا بأنفسهم، بل توجه السؤال إلى القادرين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾.

وهكذا تنقل السورة الضعيف من هامش الشفقة إلى مركز التكليف. فالشفقة شعور يتقلب؛ قد تلين النفس اليوم وتقسو غدًا، أما الحق ففريضة لا تتبدل بتبدل المزاج.

المرأة لا ترث لأن أخاها كريم، بل لأن الله فرض نصيبها. واليتيم لا يُعطى ماله لأن الوصي رقيق له، بل لأن المال ماله. والمظلوم لا يُنصف لأن الحاكم أحبه، بل لأن العدل أمر إلهي.

إن السورة لا تستجدي إحسان القوي، بل تضع قوته تحت سلطان الله.

ومن هنا يمكن أن نسأل: أهى سورة النساء، أم سورة الرجال الذين أوتمنوا على حقوق النساء؟ أهى سورة اليتامى، أم سورة الأوصياء الذين وُضع مال اليتيم تحت أيديهم؟ أهى سورة المستضعفين، أم سورة القادرين الذين سيُسألون لماذا لم تتحرك قوتهم؟

إنها سورة الضعفاء من جهة الحقوق، وسورة الأقوياء من جهة المسؤولية.

من البيت إلى الدولة

لا تعالج سورة النساء موضوعاتها بوصفها جزراً منفصلة. إنها تنتقل من الأسرة إلى المجتمع، ومن المال الخاص إلى المال العام، ومن الوصاية على يتيم إلى الولاية على أمة، لتكشف أن المبدأ الأخلاقي واحد وإن اتسعت الدائرة.

فاليد التي تخون مالا صغيرا لا تصبح أمانة تلقائيا حين تُسلم إليها خزينة كبيرة. والرجل الذي يستبد بمن يعيشون تحت سقفه لا يصير عادلا لمجرد جلوسه على كرسي الحكم. ومن يحابي قريبه في خصومة عائلية سيحابي جماعته إذا صار القرار في يده.

الدولة ليست كائنا منفصلا عن أخلاق الناس؛ إنها أخلاقهم حين تتجمع وتملك أدوات التنفيذ.

ولهذا جاءت آية الأمانة والحكم في السورة نفسها التي حمت مال اليتيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

الأمانة قبل الحكم، والعدل بعده. الأمانة تضع السلطة في يد مستحقها، والعدل يضبط حركتها حين تستقر في يده. فإذا فُقدت الأولى وصل غير المؤهل، وإذا فُقدت الثانية تحولت كفاءة الحاكم إلى قدرة أكثر إحكامًا على الظلم.

ولهذا لا يكفي أن يكون صاحب الموقع قويًا أو ذكيًا أو خبيرًا؛ فالخبرة بلا أمانة قد تجعل الخيانة أكثر احترافًا، والأمانة بلا قدرة قد تُضيّع المصالح بحسن النية. إنما تحتاج الأمة إلى يد تعرف ما تفعل، وقلب يخاف الله فيما يفعل.

البيت الذي يُسمّى ميثاقًا

تدخل سورة النساء إلى العلاقة الزوجية من باب يختلف عن النظرة التي تختزلها في متعة عابرة أو سلطة يمتلكها طرف على طرف. إنها تسمي الزواج: (مِيثَاقًا غَلِيظًا).

وما أثقل هذا الوصف!

فالزواج ليس اجتماع جسدين تحت سقف واحد، بل دخول نفسين في منطقة من القرب لا يصل إليها غيرهما. يعرف كل منهما مواضع ضعف الآخر، ويحمل أسرارهم، ويراه حين تسقط عنه أقنعة المجتمع.

ولهذا تكون الرحمة فيه أقدر على بناء السكينة، وتكون الخيانة فيه أعمق جرحًا؛ لأنها تأتي من الجهة التي سلّمت إليها مفاتيح الأمان.

والميثاق الغليظ لا يعد بحياة بلا اختلاف، بل يلزم الطرفين ألا يتحول الاختلاف إلى ظلم. لا يعد بتطابق الطباع، لكنه يأمر بإدارة التباين بالمعروف. لا يضمن بقاء المشاعر على درجة واحدة، لكنه يمنع تغييرها من أن يلتهم الحقوق.

إن البيت الحقيقي ليس المكان الذي لا تقع فيه الأخطاء، بل المكان الذي يستطيع الإنسان فيه أن يكون ضعيفاً دون أن يُهان.

ومن هنا نفهم اقتران القوامة بالتكليف لا بالتشريف المجرد. فالقائم على الشيء هو الذي ينهض به إذا ثقل، ويسد خلله، ويحفظ من تحت مسؤوليته. ليست القوامة أن يكون صوت الرجل أعلى، بل أن تكون مسؤوليته أثقل. وكل فهم لها يمنح السلطة ويُسقط النفقة والرعاية والمعروف قد أخذ من اللفظ ما يخدم الهوى وترك المقصد الذي يضبطه.

المال حين يكشف ما في القلوب

يحضر المال في السورة حضوراً كثيفاً: أموال اليتامى، والصدّاق، والميراث، والنفقة، والدّين، والتجارة، والدية، والغنيمة، والربا، والأكل بالباطل.

وليس هذا الحضور عرضاً؛ فالمال واحد من أدق المرايا التي تكشف النفس.

قد يحب الإنسان أخته حتى تأتي التركة. وقد يزعم الرحمة باليتيم حتى يقع ماله تحت يده. وقد يتحدث عن تكريم المرأة حتى تطلب نصيبها. وقد يبدو زاهداً ما دام عاجزاً عن الوصول إلى المال، فإذا أصبح المال قريباً ظهر أن ما حسبه زهداً لم يكن إلا عجزاً.

الزهد الحقيقي لا يُعرف حين لا تملك، بل حين تملك القدرة على الأخذ ثم يمنعك الحق.

ولهذا لم تترك السورة العدل في فضاء الشعارات، بل أدخلته إلى الأرقام والكسور. فالإيمان بالعدالة في العموم يسير، لكن الامتحان يبدأ حين يصبح العدل جزءاً يُقتطع من حصتك ويُدفع إلى غيرك.

فقد يمدح الإنسان القسط في خطبته، ثم يفشل أمام نصف أو ثلث أو سدس. وهنا تكشف الأرقام مقدار ما وصل من الإيمان إلى اليد.

إن الدرهم في سورة النساء يحمل سؤال الآخرة؛ فقد تنتقل به اليد من مقام الأمانة إلى درك الخيانة، وقد يكون أداء نصيب صغير طريقاً إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

المرجعية حين تخالف الهوى

لا تكتفي السورة بإقامة الحكم، بل تسأل عن المرجع الذي يُرد إليه النزاع: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ).

فالناس لا يختلفون لأنهم بلا عقول، بل قد تختلف عقولهم وتتعارض مصالحهم وتتعدد تقديراتهم. ولا تتميز الأمة المؤمنة بغياب النزاع، وإنما تتميز بالمرجع الذي يحكم نزاعها.

غير أن المرجعية لا تثبت بمجرد رفع اسم الوحي. فقد يستدعي الإنسان النص ليوقع على قرار اتخذه سلفاً، ويبحث فيه عما يؤيد موقفه، ويتجاوز ما يخالفه.

عندئذ لا يكون قد رد النزاع إلى الوحي، بل حاول أن يُدخل الوحي في خدمة هواه.

التجرد الحقيقي أن تقف أمام النص مستعداً لأن تتغير.

ولهذا تبلغ السورة بالتحاكم إلى موضع القلب:

(ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

ليس المطلوب خضوع الجسد وحده، بل أن يتعلم القلب الأدب مع حكم الله ورسوله. وقد تشق الطاعة طبيعياً، لكن المؤمن لا يتهم الحكمة لمجرد أن التكليف خالف رغبته.

إنه يحمل مشقة الحكم إلى الله، لا يهرب من الله بسببها.

النفاق: انقسام الإنسان على نفسه

تولي سورة النساء المنافقين مساحة واسعة؛ لأن المجتمع لا يهدده السلاح القادم من الخارج وحده، بل تهدده القلوب التي تسكن الصف ولا تنتمي إليه.

المنافق يريد من الإيمان اسمه ومنافعه، ولا يريد تكاليفه. يقف قريباً من الجميع، ويحتفظ بمخرج إلى كل جهة، ويتربص حتى تظهر النتيجة. فإن كان للمؤمنين فتح قال: ألم نكن معكم؟ وإن كان لغيرهم نصيب أبرز خدماته الخفية.

إنه لا يملك موقفاً، بل يملك روايتين.

وقد يرى في ذلك ذكاءً ومرونةً، لكنه يدفع ثمنه من سلامه الداخلي؛ إذ يحتاج دائماً إلى وجهين ولسانين وذاكرتين، حتى لا يخلط ما قاله هنا بما قاله هناك. أما الصدق فيريح الإنسان من إدارة الأقنعة. قد يدفع الصادق ثمن موقفه، لكنه يعيش بقلب واحد.

ومع ذلك لا تستعمل السورة وصف المنافقين لترخص للناس في تفتيش القلوب أو اتهام المخالفين. السرائر إلى الله، والأحكام تبنى على الظاهر. إنما تعرض صفاتهم ليبحث الإنسان عنها في نفسه قبل أن يرشق بها غيره. فالقرآن مرآة للإصلاح، لا حجرًا نقذف به الخصوم.

القوة حين تسجد للمعنى

لا تقدم السورة القتال بوصفه غايةً في ذاته، ولا تحول الدم إلى مشهد بطولة مجرد. إنها تربطه بسبيل الله وبنصرة المستضعفين، ثم تحيطه بقيود التبيين والعدل وقبول السلام.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

فالسلاح لا يمنح حامله حق فتح القلوب، ولا يجعل الاشتباه دليلاً كافياً لسفك الدم. وقد ينتكر الطمع في صورة الحزم، فيسقط الإنسان حرمة غيره ليصل إلى ماله.

ولهذا تكرر الأمر بالتبيين، وفُررت الدية والكفارة في القتل الخطأ، وجاء الوعيد المزلزل في قتل المؤمن عمداً، واستثنى صاحب العذر من القاعدين، وأغلق سبيل العدوان على من اعتزل القتال وألقى السلام.

إنها لا تريد قوة عاجزة تترك المستضعف لجلاده، ولا قوة منفلة تتحول وهي تنصره إلى جلال جديد.

بين الجبن والطغيان تقيم السورة ميزانها: قوة تتحرك أمام الظلم، وتقف عند زوال العدوان، وتحمل السلاح دون أن تخلع أخلاقها.

وتبلغ هذه الهندسة مشهدها الأجل في صلاة الخوف؛ حيث تصلي طائفة وتحرس أخرى. هناك لا تقول الصلاة للمقاتل: انسْ عدوك، ولا يقول الحذر له: انسْ ربك. تتجه القلوب إلى الله، وتظل الأيدي واعية بأسباب الحماية. الحرب تريد أن تختصر الإنسان في مقاتل، والصلاة تعيده عبداً.

القسط حين يصير محكمة داخلية

تصل السورة إلى قمته في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

لم تقل: اعرّفوا القسط، بل: (كُونُوا).

إنها تريد أن يصير العدل جزءاً من كينونة الإنسان، لا موقفاً عابراً يتخذه حين يوافق مصلحته. والقوام بالقسط لا ينتظر أن يكون الحق له حتى ينصره؛ يكفيهِ أن يكون حقاً.

لكن السورة تبدأ الاختبار من أصعب موضع: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾.

فالنفس أقرب الأقربين إلى الإنسان، وهي محامٍ شديد البراعة عن أفعالها. تختار لذاتها أرفق التفسيرات، ولخصمها أقساها.

تسمي غضبها غيرة، وغضب غيرها هوى. تسمي صمتها حكمة، وصمت الآخر خيانة. ترى خطأها اجتهداً، وترى الخطأ نفسه عند مخالفها انحرافاً.

لذلك لا يصبح العدل خُلُقاً كاملاً حتى يقيم الإنسان محكمةً داخليةً لا يملك فيها حصانة.

أن تقول: أخطأت، حين يكون الاعتراف مكلفاً.

وأن ترد المال حين استقر في يدك.

وأن تشهد لخصمك إذا كان الحق معه.

وأن تمنع قريبك من الظلم، لا أن تحميه من ظهور مظلّمته.

العدل الذي لا يصل إلى النفس يبقى سلاحاً نحاكم به الآخرين.

منهج هذه الرحلة

هذه الصفحات ليست تفسيراً يستغني به القارئ عن كتب المفسرين، ولا دعوى للإحاطة بجميع ما في السورة من لغة وفقه وأسباب نزول وأحكام. إنها رحلة تدبرية تسير تحت ضوء التفسير المعتبر، تبدأ من المعنى الظاهر الذي يدل عليه اللفظ والسياق، ثم تنفذ إلى آثاره النفسية والاجتماعية والإنسانية.

وقد جرى بناؤها آيةً آيةً، بحسب ترتيب المصحف، حتى لا تتحول القراءة الموضوعية إلى انتقاء يترك بعض الوحي في الظل. فكل آية لبنة في عمارة السورة، وقد يبدو موضعها بعيداً عن الآية السابقة، ثم يكشف التأمل أن خيطاً خفياً يجمعهما داخل مقصد واحد.

وُقُسمت الرحلة إلى عشرة فصول متتابعة، تبدأ من النفس الواحدة، وتمضي عبر الميراث والبيت والعبادة والأمانة والقتال والقضاء والقسط ووحدة الوحي، حتى تبلغ الآية الأخيرة في الكلالة.

ولم يكن المقصود تفكيك السورة إلى خواطر منفصلة، بل تتبع حركتها وهي تبني الإنسان المؤمن: الإنسان الذي يستطيع أن يحمل المال والقوة والعلم والولاية دون أن يحولها إلى أدوات اقتراس.

وعند تعدد الأقوال التفسيرية المعتبرة أُشير إلى ما يحتاج إلى بيان، دون إغراق يقطع حرارة السرد. وعند أخبار الغيب وقف النص حيث وقف الوحي، فلم تُملأ المساحات المسكوت عنها بقصص لا تثبت. فالتدبر ليس إطلاق الخيال بعيداً عن الدلالة، بل إيقاظ القلب داخل حدود النص.

إننا لا نريد أن نقول للقرآن ما نحب، بل أن نصغي إلى ما يقوله، ثم نرى أنفسنا في مرآته.

قبل أن تبدأ القراءة

لا تدخل إلى سورة النساء باحثًا عن حقوقك وحدها؛ فقد تخرج منها بقائمة طويلة مما لك، وتغفل عما عليك.

ادخل إليها وأنت تسأل:

أَيُّ ضَعِيفٍ وَضَعَ اللَّهُ حَقَّهُ تَحْتَ يَدِي؟
وَأَيُّ أَمَانَةٍ تَأَخَّرْتُ عَنْ أَهْلِهَا؟
وَأَيُّ قَرِيبٍ مَنَعَنِي حَبَهُ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِظُلْمِهِ؟
وَأَيُّ خَصْمٍ مَنَعَنِي بَغْضَهُ مِنْ رُؤْيَةِ حَقِّهِ؟
وَأَيُّ حَكْمٍ قَبْلَتَهُ بِلِسَانِي وَبَقِيَ فِي نَفْسِي مِنْهُ حَرَجٌ؟
وَأَيُّ مُسْتَضْعَفٍ سَمِعْتُ دَعَاءَهُ ثُمَّ مَضَيْتُ؟
وَأَيُّ هَوًى لَبَسَ ثَوْبَ الْمَصْلَحَةِ حَتَّى قَادَ قَرَارِي؟

عندئذ لا تعود السورة كتاب أحكام نقرأه من الخارج؛ تصبح نورًا يدخل إلى الغرف المغلقة في النفس.

إنها لا تسأل الإنسان ماذا يقول عن العدالة حين يكون بعيدًا عن الامتحان، بل ماذا يفعل حين يصبح الحق مألًا في يده، أو حكمًا على قريبه، أو شهادةً على نفسه.

والسورة، مع ما فيها من أوامر وحدود ووعيد، لا تريد إهلاك الإنسان. فهي التي قالت: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾،

وقالت: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾،

وقالت: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾.

إنها تكشف الجرح ليُشفَى، وتقيم الحد كي لا نسقط، وتفضح الهوى كي نتحرر منه، وتذكر القوي برقابة الله حتى يصبح الضعيف آمناً من يده.

وعند ختامها تعود إلى العلم الإلهي: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

بدأت بالرقابة، وانتهت بالعلم؛ وبينهما جرت أموال ومواثيق وخصومات وحروب وصلوات وشهادات. كل شيء وقع تحت نظر الله وعلمه، ولم تسقط مظلمة من الحساب.

فلندخل هذه السورة بقلوب لا تبحث عن تبرئة نفسها، بل عن إصلاحها؛ ولنجعل سؤالها الأكبر مصاحباً لنا في كل فصل:

كيف أكون قوياً دون أن أظلم، ومؤثماً دون أن أخون، ومؤمناً لا يحتاج الحق إلى أن يكون في صفه حتى ينصره؟

الفصل الأول

مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ

مِنْ جَذْرِ الْخَلْقِ إِلَى حِمَايَةِ الضُّعَفَاءِ

الآية الأولى

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

تفتتح سورة النساء أبوابها بنداء لا يخص المؤمنين وحدهم، ولا ينتظم أهل شريعة دون غيرهم، وإنما يوقظ الإنسان في كل إنسان:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

قبل أن تتحدث السورة عن اليتامى والنساء والمواريث والأموال والبيوت والسلطة والحرب، تعيد البشرية كلها إلى مهدها الأول. تنفض عن الإنسان الأسماء التي صنعها التاريخ، والطبقات التي أقامها المال، والحواجز التي شيدتها العصبية، ثم توقفه أمام حقيقة سبقت ذلك كله:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

ليست هذه معلومةً عن بدء الخلق فحسب، بل قاعدة أخلاقية يبنى عليها المجتمع. فالبشر لم يخرجوا من أصول متفاوتة حتى يزعم بعضهم أن طينته أرفع من طينة غيره، ولم تُخلق جماعة للسودد وجماعة للخدمة، ولم يُمنح جنس جوهر الإنسانية ويُحرَم منه جنس آخر. إنهم جميعًا أغصان شجرة واحدة، مهما اختلفت وجوههم وألسنتهم وأوطانهم.

إن كل ظلم يبدأ بنسيان هذه الحقيقة.

فالظالم لا يستطيع أن يسلب غيره حقه إلا بعد أن ينقص إنسانيته في ضميره. يحتاج أولاً إلى أن يقنع نفسه بأن ضحيته أدنى منه: نسباً، أو مالاً، أو جنساً، أو منزلةً. فإذا نجح في تحقيرها داخله، سهل عليه أن يهضم حقها خارجه.

ومن هنا تبدأ سورة الحقوق بردم الحفرة النفسية التي ينبت فيها الظلم. تقول للقوي: هذا الضعيف ليس مادةً زائدةً في العالم؛ إنه شقيقك في أصل الخلقة. وتقول للرجل: المرأة ليست كائنًا ملحقًا بإنسانيتك؛ فأنت وإياها من نفس واحدة. وتقول للوصي: اليتيم الذي تحت يدك لم يغب عن رعاية الله حين غاب أبوه.

إن العدالة لا تبدأ من المحكمة، بل من التصور الذي نحمله عن الإنسان.

فإذا رأيت الناس عباداً لله، مكرمين بأصل الخلقة، صارت حقوقهم ثقيلةً في يدك. وإذا رأيتهم درجاتٍ من القيمة تحددها القوة والمنفعة، تحولت العدالة عندك إلى منحة يمنحها القوي لمن يشاء ويسحبها متى شاء.

من النفس إلى الزوج

﴿وَوَلِّقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

تأتي المرأة في أول السورة شطراً في أصل الوجود، قبل أن تأتي زوجةً لها حقوق، أو أمّاً لها حرمة، أو بنتاً لها ميراث. يعيدها القرآن إلى موضعها الأول: شريكةً في الإنسانية، وعنصرًا أصيلاً في استمرار الحياة.

ومن هنا ندرك شيئاً من سر تسمية السورة بالنساء. فالمجتمع يُعرف أخلاقياً من الطريقة التي يعامل بها من جعلتهم بنيته أضعف قدرةً على انتزاع حقوقهم. وحين تكون المرأة محرومةً من مالها، أو مصادرة الإرادة، أو محكومةً بعبادة جائرة، فإن الخل لا يقع عليها وحدها؛ إنه تصدع في مفهوم الأمانة عند المجتمع كله.

لا تنتظر السورة إلى المرأة بوصفها موضوعاً للشفقة، بل صاحبة حق. والفرق بعيد بين الشفقة والحق؛ فالشفقة مزاج قد يحضر ويغيب، أما الحق فواجب لا يتغير بتغير المزاج.

من اثنين إلى عالم كامل

(وَبَثَّ مِنْهُمَا رَجُلًا كَثِيرًا وَنِسَاءً).

تفتح كلمة ﴿بَثَّ﴾ أمام الخيال مشهد البشرية وهي تنتشر على امتداد الأرض: وجوه لا تحصى، والسنن لا تتشابه، وألوان وأمم وحضارات، لكنها جميعاً خرجت من بيت إنساني واحد.

بدأت البشرية أسرة، ثم صارت شعوباً.

وهذا المعنى شديد الاتصال بموضوع السورة؛ لأن المجتمع الواسع ليس إلا الأسرة الأولى وقد امتدت دوائرها. فإذا فسدت الرحمة والأمانة في البيت، خرج الفساد منه إلى المجال العام. ومن تعلّم الاستبداد في الأسرة قد يحمله إلى المؤسسة والدولة، ومن أكل حق الضعيف داخل بيته لن تمنعه الشعارات من أكل حقوق الأمة إذا اتسعت سلطته.

البيت هو المدرسة الأولى للعدل.

فيه يتعلم الطفل هل القوة رعاية أم قهر، وهل المال أمانة أم وسيلة سيطرة، وهل الاختلاف يدار بالمعروف أم بالإيذاء. وما يظهر بعد ذلك في الدولة ليس منفصلاً تماماً عما ترسب في البيوت.

الأرحام: القرابة بوصفها أمانة

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ).

بعد أن ردت الآية الناس إلى أصلهم الواحد، ذكّرتهم بالأرحام التي تشعبت من ذلك الأصل. فالرحم ليست رابطة دم صامتة، بل ذاكرة الخلقة الأولى. تذكّر الإنسان بأنه لم يظهر في العالم مكتفياً بنفسه؛ حملته أم، ورعاه أب، واحتضنته أسرة، وتلقته أيدٍ كثيرة قبل أن يتعلم الوقوف على قدميه.

كل إنسان مدين منذ لحظته الأولى.

مدين لرحم حملته، ويد أطعمته، وقلب سهر عليه، ولغة سبقت لسانه، ومجتمع هياً له أسباب الحياة. ولذلك فإن وهم الاكتفاء الذاتي من أخطر أوهام القوة. فمن ظن أنه صنع نفسه بنفسه سهل عليه إنكار حقوق الآخرين، أما من عرف مقدار ما تلقاه، فإنه يرى العطاء ردّاً لبعض الدين الإنساني القديم.

غير أن القرابة نفسها قد تتحول إلى أداة ظلم إذا انفصلت عن التقوى. قد ينصر الإنسان قريبه ظالماً، ويمنحه ما ليس له، ويحرم البعيد لأنه لا يمت إليه. لذلك لم تترك الأرحام للعاطفة وحدها، بل قرنت بتقوى الله.

صل الرحم، لكن لا تجعلها عصبية تعميك عن الحق.
وأحب القريب، لكن لا تظلم من أجله غريباً.

فالسورة التي تبدأ بتعظيم الأرحام ستبلغ بعد ذلك قول الله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

القرابة في القرآن لا تسقط العدل، بل تضاعف المسؤولية.

الرقيب الذي لا يغيب

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا).

تُخْتَمُ الآية بالرقابة؛ لأن كثيراً من الحقوق التي سنتناولها السورة تقع بعيداً عن أعين الناس.

من يعلم مقدار المال الذي تركه الأب؟
ومن يرى الوصي حين يخلط مال اليتيم بماله؟
ومن يسمع ما يجري خلف أبواب البيوت؟
ومن يزن ميل القلب حين يُطلب من الإنسان العدل؟
ومن يعرف حقيقة المنافق حين يصطف ببذنه مع المؤمنين بينما يتجه قلبه إلى مصلحته؟

هناك مساحات لا تبلغها المحاكم، ولا تحيط بها القوانين. ولو غُلِّقَت العدالة كلها برقابة البشر، لاتسعت للحيلة أبواب لا تنتهي. لذلك تنقل السورة الإنسان من مراقبة النظام إلى مراقبة الله: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا).

والرقابة الإلهية ليست تهديداً للخائن وحده، بل أمان للمظلوم. قد تغيب مظلمته عن الناس، وقد يعجز عن البيان، وقد تتواطأ عليه القوى، لكن حقه لم يغيب عن علم الله.

وما أثقل كلمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾!

فهي تستوعب الخلوة والجلوة، والمال والبيت، والحاكم والمحكوم، والقول الذي يسمعه الناس والنية التي لم يسمعها أحد.

ومن استشعر هذه الرقابة لم يعد يسأل: هل يستطيع الناس إثبات ما فعلت؟ بل يسأل: كيف ألقى الله بما فعلت؟

هكذا تضع الآية الأولى الأساسات التي ستقوم عليها السورة كلها:

وحدة الأصل تمنع الاستعلاء.

والأرحام تمنع القطيعة.

والتقوى تمنع العدوان.

والرقابة تمنع الخيانة في الخفاء.

ثم تنتقل السورة مباشرة إلى أول امتحان عملي لهذه المبادئ: مالٌ في يد قوي، وصاحبه طفل ضعيف.

الآية الثانية

﴿وَأَنْتُمْ أَلْيَمَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

ما إن تفرغ السورة من إعلان وحدة الأصل حتى تتحني على طفل فقد أباه. لم تبدأ بأصحاب النفوذ، بل بمن قد لا يملك القدرة على الشكوى.

كأن القرآن يقول: إذا أردتم معرفة حقيقة أخلاقكم، فلا تنظروا إلى طريقة تعاملكم مع الأقوياء؛ فهناك تحرس المصالح سلوككم. انظروا كيف تعاملون من لا تخافون منه ولا ترجون عنده منفعة.

القوي يستطيع أن ينتزع احترامه، أما الضعيف فلا يحميه إلا عدل المجتمع وتقوى من تولى أمره.

ليس يتيماً من له رب يحفظ حقه

قد يموت الأب، فيتوهم الطامع أن الحارس قد غاب، وأن المال صار مكشوفاً، وأن الطفل لن يعرف ما أخذ منه. لكن سورة النساء تنقل مال اليتيم من حماية الأب الغائب إلى رقابة الله الذي لا يغيب.

الأب قد مات، لكن الأمانة لم تمت. والطفل قد عجز عن المطالبة، لكن حقه لم يعجز عن بلوغ ميزان الله.

(وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ).

نسبت الأموال إلى أصحابها بوضوح: (أَمْوَالَهُمْ). ليست أموال الأوصياء وإن وقعت في أيديهم. فاليد لا تغير الملكية، والقدرة على التصرف لا تصنع الحق.

وهذه قاعدة تتجاوز مال اليتيم إلى كل أمانة: ليس كل ما وقع تحت يدك صار ملكاً لك. قد تكون يدك عليه يد حفظ لا يد امتلاك، وقدرتك على أخذه لا تمنحك شرعية أخذه.

الأمانة هي المسافة الأخلاقية بين ما تستطيع أخذه وما يجوز لك أخذه.

الخيانة حين تغير اسمها

(وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْبَ بِالطَّبِّبِ).

الخيانة قلما تدخل النفس باسمها الحقيقي. لا يقول الخائن لنفسه: سأسرق مال يتيم. إنه يحتاج إلى ستار لغوي يخبئ تحته قبح الفعل، فيسمي الأخذ تعويضًا، والاستئثار حقًا، والتبذير إدارةً، والتحايل اجتهاذاً.

وهكذا تبدأ جرائم كثيرة بتغيير الأسماء.

فالضمير قد يرتعد أمام كلمة «الخيانة»، لكنه يهدأ إذا قيل له: هذه منفعة تستحقها. وقد ينفر من أكل مال اليتيم، لكنه يتساهل إذا أدخل المال في حسابات معقدة حتى ضاع اسم صاحبه بين الأرقام.

غير أن القرآن ينزع عن الحيلة ثيابها: هذا طيب، وهذا خبيث.

هذا مالك، وهذا مال اليتيم.

هذه نفقة بالمعروف، وهذا أكل بالباطل.

ولا يستطيع الإنسان أن يطهر الفعل الخبيث بمجرد أن يمنحه اسمًا ناعمًا.

فاللغة قد تخدع الناس، لكنها لا تغير حقائق الأعمال عند الله.

حين يغري الضعف

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾.

قد يكون الوصي مالكا للمال، ومع ذلك تمتد عينه إلى مال اليتيم. وليس الطمع دائما ثمرة الحاجة؛ فكثيرا ما يكون ثمرة قلب لم يعرف حد الكفاية.

﴿إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾.

مالك موجود، ومع ذلك تضم إليه مال من لا يستطيع ردك. لم يدفعك الجوع، بل أغراك الضعف.

ولهذا قالت الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾.

إنه إثم عظيم لا تصغره قلة المال؛ لأن الجريمة لا تقاس بالمبلغ وحده، بل بمقدار الأمانة المنتهكة والضعف المستغل. قد يكون الشيء المأخوذ قليلا في ميزان السوق، لكنه ثقيل في ميزان الأخلاق؛ لأن اليد لم تسرق مالا فحسب، بل خانت قلبا صغيرا احتذى بها.

وما أقسى أن تأتي الخيانة من الجهة التي كان ينبغي أن يأتي منها الأمان!

الآية الثالثة

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا) [النساء: ٣].

قد تُقرأ هذه الآية بعيداً عن بدايتها، فيقف القارئ عند إباحة التعدد وينسى أن الآية خرجت من سؤال القسط في اليتامى.

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ).

فالسّياق يحمي اليتيمة التي قد تقع تحت ولاية رجل يعجبه مالها أو جمالها، فيرغب في الزواج منها دون أن يؤدي إليها ما تستحقه من صداق وعدل. وهنا تفتح الآية أمامه دائرةً واسعةً من النساء، حتى لا يجعل ولايته على اليتيمة طريقاً إلى ظلمها.

كأنها تقول: إن خفت أن يختلط سلطان الوصاية برغبة الزواج فتجور، فاتركها، والنساء سواها كثيرات.

اليتيمة ليست فرصة سهلة لأن وليها هو خاطبها، ولا يجوز أن تتحول حاجتها إلى الأمان إلى مدخل للاستيلاء على مالها وحياتها.

وهنا تتضح حقيقة دقيقة: قد يدخل الظلم من باب يبدو مشروعاً في ظاهره. فالزواج مشروع، لكن إذا استعملت الولاية لإسقاط حق المرأة، صار المشروع ستاراً لعدوان غير مشروع.

التعدد داخل سياق العدل

(فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ).

أباحَت الآية التعدد إلى أربع، لكنها لم تتركه رغبةً منفصلةً عن المسؤولية. أحاطته قبل ذكره بالقسط في اليتامى، وأحاطته بعد ذكره بالعدل بين الزوجات.

إن المباح في القرآن لا ينفصل عن أخلاق استعماله. فقد يكون الشيء مباحًا في أصله، ثم يظلم الإنسان في تطبيقه، أو يعجز عن أداء حقوقه، أو يحوله إلى وسيلة للإضرار.

ولهذا جاءت الجملة التالية حاسمة: (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً).

تنقل الآية الرجل من عدد ما يشتهي إلى مقدار ما يستطيع أن يحمل من الأمانة. فالقضية ليست قدرةً ماليةً مجردة، ولا رغبةً عابرة، بل بيوت وحقوق وقلوب ونفقات وأيام.

وما كل ما يستطيع الإنسان ابتداءه يستطيع الوفاء بتبعاته.

إنه لا يُسأل فقط: هل تقدر على الزواج؟ بل: هل تقدر على العدل؟ فقد تكون القدرة على فتح أبواب البيوت أيسر من القدرة على حمل ما وراءها من عهود.

﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾؛ أي أقرب إلى ألا تجوروا وتميلوا عن العدل. فالغاية ألا تتسع الرغبة أكثر من طاقة المسؤولية، وألا يصير المباح طريقًا إلى البغي.

الآية الرابعة

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

للمرة الثانية يظهر فعل الإيتاء: ﴿وَأَتُوا أَلْيَنَامِي أَمْوَالَهُمْ﴾، ثم: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾.

كان السورة تتعقب الأموال التي اعتادت الجاهلية حبسها عن أصحابها، وتعيد كل حق إلى اليد التي تملكه.

والصداق حق للمرأة نفسها، لا ثمنًا لها؛ فالإنسان لا يشتري. إنه عطاء واجب يعبر عن جدية الميثاق، وتدخل به المرأة العلاقة مالكة لا مملوكة. ﴿نِحْلَةً﴾.

عطاء واجبًا عن طيب نفس، لا مبلغًا يؤديه الرجل متثاقلاً ثم يظل يمين به عليها. فالمن محاولة متأخرة لاسترداد كرامة من أُعطي، والعطية التي تتبعها الإهانة تتحول من جسر مودة إلى وثيقة سيطرة.

ثم تحفظ الآية إرادتها حتى في التنازل: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾.

لم تقل: إن أعطيتكم، بل علقت الإباحة بطيب النفس. فقد تتحرك اليد بالعطاء بينما القلب مكره، وقد يصمت اللسان تحت ضغط العلاقة، وقد تنتازل المرأة لأنها تخشى الغضب أو الهجر.

لذلك نفذت الآية إلى باطن الرضا، واشترطت أن تطيب النفس.

ما أرق هذا العدل! لا يكتفي بصورة الموافقة، بل يريد موافقة لا تختبئ وراءها رهبة أو حرج.

فإذا طابت النفس حقيقةً، صار المال: ﴿هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾.

الهنيء ما لا تعقبه تبعه ولا أذى، والمريء ما تحسن عاقبته. أما ما أخذ تحت الضغط، فقد يدخل اليد، لكنه لا يحمل بركة الهنيء المريء.

الآية الخامسة

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

توازن السورة بين حق الملكية وضرورة الرعاية. فالمال لصاحبه، لكن تسليمه إلى من لا يحسن التصرف فيه قد يكون صورةً أخرى من صور تضييع حقه.

ليست الأمانة أن ترد الشيء في أي وقت، وإنما أن ترده حين تتحقق برده مصلحة صاحبه.

وسمّت الآية الأموال: ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾.

وفي هذا التعبير إيقاظ لمعنى التكافل؛ فمال الفرد ليس منفصلاً تماماً عن قيام المجتمع، وإتلافه لا يقف أثره عند صاحبه. المال ثروة تتحرك بها حاجات كثيرة، وإذا تسلط عليه السفه تعطلت منافع تتجاوز الفرد.

﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾.

المال في التصور القرآني ليس زينة صامتة، بل أداة تقوم بها شؤون الحياة. يطعم جائعاً، ويستر جسداً، ويبنى بيتاً، ويفتح باباً للعمل، ويحفظ كرامة من ذل السؤال.

فإذا خرج من يد الرشد إلى يد السفه، لم تضع أوراق وأرقام فحسب، بل تعطلت الوظائف الإنسانية التي أودعها الله فيه.

غير أن منع السفه من التصرف لا يعني إذلاله أو تجويعه: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾.

يُحمى المال، ويُحمى معه الإنسان. فلا تتحول الولاية إلى عقوبة، ولا يُجعل العجز عن حسن التدبير سبباً لإسقاط الكرامة.

ثم تضيف السورة حقاً قد يبدو صغيراً بجوار الطعام والكساء، لكنه يكشف رهافة المنهج: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

فالإنسان لا يعيش بالخبز وحده. قد تؤدي إليه النفقة كاملة، ثم تهدم بكلمة قاسية ما بنّيته بالمال. قد تكسو جسده، لكنك تعري روحه من الشعور بالعزة.

ولهذا ألزمت السورة الولي أن يحفظ لسانه كما يحفظ المال؛ لأن الكلمة المؤذية قد تكون استيلاءً من نوع آخر: استيلاء القوي على المساحة الداخلية للضعيف، يملؤها بالمهانة والخوف.

ما أجمل أن تجمع الآية بين الرزق والكسوة والقول المعروف! إنها تحفظ للإنسان ما يقيم حياته، وما يستر ظاهره، وما يصون قلبه.

الآية السادسة

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

لا تريد السورة لليتامى أن يبقى أسير الوصاية إلى الأبد. فالرعاية الحقيقية ليست صناعة إنسان يعتمد عليك، بل إعداده ليستقل عنك.

الوصي الأمين لا يحرس المال وحده؛ إنه يبني صاحبه حتى يصبح قادراً على حراسته.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾.

أي اختبروهم ودرّبوهم، وانظروا كيف يتصرفون. فالبلوغ الجسدي وحده لا يكفي لإدارة المال؛ لا بد معه من الرشد. وبين البلوغ والرشد مسافة تصنعها التربية والخبرة والتدرج في تحمل المسؤولية.

قد يكبر الجسد وتبقى الإرادة طفلةً، وقد يبلغ الإنسان السن التي تمنحه حق التصرف ولا يبلغ الحكمة التي تحميه من نفسه.

فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا

لم تقل الآية: إِنْ رَأَيْتُمْ، بل قالت: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾.

وفي الإيناس معنى الإدراك الذي تصحبه الطمأنينة. كأن الرشد لا يُحكم به من موقف عابر أو تصرف واحد، بل من دلائل تتكرر حتى يسكن إليها قلب الوصي.

والرشد أكثر من معرفة الحساب. إنه حسن تقدير العواقب، والتمييز بين الحاجة والنزوة، والقدرة على مقاومة الإغراء، وفهم وظيفة المال. فقد يحسن الإنسان جمع الأرقام، لكنه يسيء إدارة رغباته، فيكون ذكيًا في الحساب سفيهاً في القرار.

فإذا ظهر الرشد، جاء الأمر حاسماً: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.

انتهت الوصاية بانتها سببها. لم تعد الحماية مبرراً للسيطرة، ولا الخبرة ذريعة لمصادرة الاستقلال.

وكم من سلطة بدأت مؤقتةً ثم أحبت البقاء!

وكم من وصاية زعمت حماية صاحب الحق، وهي تحمي امتيازات الوصي!

إن معيار الأمانة أن تقبل انتهاء سلطتك حين ينتهي سببها.

سباق الخائن مع نمو اليتيم

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾.

تكشف الآية حركة نفسية شديدة الخفاء: يرى الوصي اليتيم يقترب من الرشد، فيبادر إلى استنزاف ماله قبل أن يصبح قادرًا على السؤال.

كأنه يسابق نمو الطفل.

كلما اقترب اليتيم من القوة، شعر الخائن بأن نافذة الاستغلال تضيق، فأسرع إلى المال قبل أن ترتفع اليد الصغيرة لتقول: أين حقي؟

إن الظلم يحب ضحاياه عاجزين، ويضيق بكل وعي ينمو فيهم؛ لأن المستبد لا يخشى القوة وحدها، بل يخشى السؤال.

ولذلك فإن تربية اليتيم على الرشد تحرير له من العجز. كل معرفة تعطى للضعيف تسترد جزءًا من حقه، وكل وعي يبني فيه يغلق منفذًا كان الطامع يتسلل منه.

الجهل حليف قديم لمن يريد أكل الحقوق.

بين الاستغفاف والحاجة

(وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِرْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ).

لا تتجاهل السورة واقع الوصي. فقد يبذل جهدًا ووقتًا في إدارة المال، وقد يكون محتاجًا. لكنها تضبط حاجته حتى لا تتحول إلى ثقب تتسرب منه الأمانة.

الغني يستغف؛ لأن حاجته غير قائمة، وأخذه يفتح باب الطمع. والفقير يأكل بالمعروف؛ لا بما تشتهيئه نفسه، ولا بما تمكنه منه سلطته، بل في الحدود التي يعرف الناس عدالتها وتقرها الشريعة.

(بِالْمَعْرُوفِ) كلمة تقف بين الحاجة والجشع. تعترف بضعف الإنسان، لكنها لا تسلمه القيادة. تبيح القدر العادل، ولا تجعل الفقر صكًا مفتوحًا في مال اليتيم.

إن العدل القرآني لا يبني أحكامه على بشر متخيلين لا حاجات لهم. إنه يعترف بالحاجة ويهذبها، ويمنعها من أن تتحول إلى افتراس.

التوثيق لا يناقض التقوى

(فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ).

الأمانة في القلب، لكنها تحتاج إلى نظام يحفظها في الواقع. لذلك أمرت الآية بالإشهاد عند تسليم المال. فحسن النية لا يغني عن التوثيق، والتقوى لا تعني إهمال الإجراءات التي تمنع الخصومة.

الأشخاص ينسون، والذاكرة تتغير، والنفوس تختلف. أما الشهادة فتقيم للحق
أثرًا ظاهرًا يرجع إليه الناس.

ثم تختتم الآية: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

وهنا يتكامل الرقيب الباطن مع الضمان الظاهر:

﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾: توثيق في الأرض.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾: حساب عند الله.

فلا الإيمان بالحساب يلغي التوثيق، ولا التوثيق يغني عن الإيمان بالحساب.
القانون يحاصر الخيانة من الخارج، والتقوى تحاصرها من الداخل.

خاتمة الفصل الأول

من وحدة الأصل إلى أمانة القوة

تبدأ سورة النساء بإعادة الإنسان إلى أصله، ثم تضعه مباشرة أمام أمانته.

أنت من نفس واحدة، فلا تستعل.

ومن حولك أرحام، فلا تقطع.

والله عليك رقيب، فلا تخن.

وتحت يدك ضعفاء، فلا تجعل ضعفهم بابًا إلى حقوقهم.

إن السورة لا تبدأ بتعداد ما يملكه الإنسان، بل بما استودعه الله. فالوصاية ليست امتلاكًا، والقوامة ليست استبدادًا، والمال ليس إذناً بالطغيان، والقوة ليست شهادة تفوق.

كل قدرة أمانة.

وحين تحفظ اليتيم، لا تنقذه وحده؛ إنك تنقذ قلبك من وحش القوة. وحين تربيته على الرشد، لا تصنع تابعًا لك، بل تعيد إليه قدرته على الوقوف. وحين تسلمه ماله، فإنك تعلن أن يدك عرفت حدها، وأن التقوى كانت أقوى من الطمع.

الفصل الثاني

الْمِيرَاثُ وَحُدُودُ اللَّهِ

حِينَ يُقَسِّمُ الْوَحْيُ الْمَالَ وَيَفْتَحُ لِلْمُذْنِبِ بَابَ الْعُودَةِ

يدخل الموت بيتًا، فيسكن الصوت الذي كان يملؤه، وتتطوي صفحة إنسان، وتبقى أشياؤه من بعده: بيتٌ كان يأويه، ومالٌ جمعه، ومتاعٌ لامسته يداه، وأرضٌ أنفق في تحصيلها بعض عمره.

وفي اللحظة التي تنشغل فيها القلوب بالفقد، تبدأ في موضع خفي حركة أخرى:

لمن يصير ما ترك؟

إنها لحظة تختلط فيها الدموع بالحسابات، والقرابة بالمصلحة، وذكرى الميت بشهوة الأحياء. وقد يبكي الإنسان أخاه عند القبر، ثم ينازع أبناءه في حقوقهم قبل أن يجف تراب القبر.

فالموت يكشف هشاشة الحياة، لكنه قد يكشف كذلك ما أخفته النفوس من الطمع.

ولهذا لم يترك الله قسمة التركات لأهواء الأقارب، ولا لموازن القوة، ولا للعادات التي تمنح من تشاء وتحرم من تشاء. تولى سبحانه بيان أصولها،

وفصل أنصبتها؛ لأن المال حين يفقد صاحبه يصبح ساحةً شديدة القابلية للنزاع.

الآية ٧

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

كان الميراث في الجاهلية يدور مع القوة؛ يعطى لمن يحمل السلاح ويحمي القبيلة، أما المرأة والصغير فقد يُحرمان لأنهما لا يشاركان في القتال. فجاء القرآن لينزع المال من منطق الغلبة، ويضعه في ميزان الحق.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾.

ثم جاء الإعلان الذي هدم العرف الجائر: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾.

لم تقل السورة: أعطوا النساء شيئاً تطيبياً لخواطرهن، ولم تجعل ما يصل إليهن هبةً من الرجال، بل قالت: ﴿نَصِيبٌ﴾. والنصيب حق معلوم، لا صدقة يتفضل بها القوي، ولا عطية يستطيع سحبها متى تبدل مزاجه.

إن الفرق بعيد بين أن تُعطى المرأة من التركة، وأن يكون لها نصيب فيها. في الصورة الأولى يبدو الرجل مالِكًا أصليًا يمنحها ما يريد، وفي الثانية يقف الجميع أمام قسمة الله متلقين، لا مانحين.

لا يعطي الأخ أخته من ماله حين يسلمها ميراثها، بل يرفع يده عن مالها.

ومن يتوهم أنه صاحب فضل في أداء الحقوق سيطالب أصحابها بالشكر، وربما رأى مطالبتهم بكمال الحق جحودًا لكرمه. أما من عرف أنه يؤدي فرضًا، فإنه يستحي أن يمتنّ بما لو حبسه لكان ظالمًا.

(مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ).

لا يرتبط الحق بكثرة المال. فما دام الشيء قد ثبت لصاحبه، وجب أدائه وإن قل. وقد يهون الظلم على النفس حين تكون التركة صغيرة، فيقال: لا يستحق الأمر حسابًا أو نزاعًا. لكن قيمة الحق لا تأتي من حجمه، بل من الجهة التي فرضته.

درهم محجوب قد يكشف من فساد الضمير ما لا تكشفه آلاف تُعطى؛ لأن الإنسان قد يبذل الكثير حيث تُرى صورته، ثم يأكل القليل حين يأمن انكشافه. ثم جاءت العبارة القاطعة: (نَصِيْبًا مَّفْرُوضًا).

فُرض من فوق إرادات العائلة، واستقر قبل أن يجتمع الورثة لمناقشته. ليس قرارًا اجتماعيًا قابلاً للتعديل، ولا عادةً يمكنها أن تحرم المرأة بحجة أنها متزوجة، أو أن الأرض ينبغي أن تبقى بأسماء الرجال.

العادات تُحترم ما دامت داخل حدود العدل، فإذا حاولت محو نصيب فرضه الله، سقطت هي وبقي الحق.

الآية ٨

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا) [النساء: ٨].

هناك أصحاب أنصبة مفروضة، وحولهم أقارب ويتامى ومساكين لا نصيب لهم في التركة، لكنهم حضروا مشهد القسمة. وما أصعب أن يرى المحتاج المال يُوزع أمام عينيه، ثم يعود فارغ اليد!

لا تغير الآية الأنصبة المفروضة، لكنها تفتح في جدار الحساب نافذة للإحسان. فالعدل يؤدي الحق الواجب، والفضل يرى من بقي خارج جدول الاستحقاق فلا ينساه.

(فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ).

سمت ما يعطونه رزقاً؛ لتذكّر الورثة بأن المال الذي وصل إليهم ليس منفصلاً عن رزق الله، وأنهم حين يعطون لا يخلقون رزق الفقير، وإنما يكونون طريقاً ساقه الله إليه.

ثم قالت: (وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا).

مرة أخرى تقرن السورة المال بالكلمة؛ لأن اليد قد تعطي ويجرح اللسان. وقد يحصل الفقير على شيء من المال، لكنه يخرج محملاً بإهانة أثقل من حاجته.

لا يعفي العطاء من حسن الخطاب، كما أن الكلمة الطيبة لا تصبح بديلاً عن العطاء حين يوجد ما يُعطى. للإنسان حاجة في ماله، وحاجة أخرى في كرامته.

وفي الآية تربية للورثة في لحظة قد يستولي فيها شعور التملك على قلوبهم. فالمال دخل أيديهم حديثاً، وقبل أن تنغلق عليه أصابعهم، يعلمهم القرآن أن يروا الوجوه المحرومة من حولهم.

كأن أول استعمال للنعمة ينبغي أن يكون إعلاناً أن المال لم يحبس الرحمة في القلب.

الآية ٩

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) [النساء: ٩].

تنقل الآية الإنسان من موقع القوة إلى الموقع الذي يخشاه. تقول لمن يتولى شأن الضعفاء: تخيل أبناءك بعد موتك، صغاراً بلا سند، وقد صارت حقوقهم في يد شخص يملك أن يحفظها أو يبدها.

ماذا تتمنى منه؟

ذلك الذي تتمناه لأبنائك، افعله بأبناء غيرك.

إنها تربية أخلاقية تقوم على تبادل المواقع. فالإنسان قد يقسو ما دام ينظر من جهة مصلحته، فإذا تخيل أبناءه في موضع الضحية استيقظ فيه ميزان كان نائماً.

كثير من الظلم يتغذى من وهم الدوام: دوام القوة، ودوام الصحة، ودوام القدرة على حماية الأبناء. لكن الموت يذكر الإنسان بأن المواقع ليست ثابتة، وأن الذي يحمي اليوم قد يترك غداً من يحتاج إلى الحماية.

(فَأَيُّتَّقُوا اللَّهَ).

لم تقل الآية: فليخافوا انتقام هؤلاء الصغار؛ فقد لا يستطيعون الانتقام. ردت الضمان إلى أصله الأعمق: تقوى الله.

ثم قالت: (وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا).

القول السديد مستقيم يصيب الحق، لا يلتوي مع المصلحة، ولا يخفي شيئاً من التركية، ولا يزين وصيةً جائرة، ولا يستعمل غموض اللغة لتمرير الظلم.

في قضايا المال قد تبدأ الخيانة بكلمة: شهادة ناقصة، أو معلومة مكتومة، أو رقم محرف، أو وعد مضلل. لذلك تطالب السورة اللسان بالسداد قبل أن تطالب اليد بالأداء.

وكانها تقول: إذا أردتم أن تحفظ ذرايكم بعدكم، فاحفظوا تقوى الله في ذراي الآخرين.

الآية ١٠

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ
سَعِيرًا) [النساء: ١٠].

في ظاهر الدنيا يرى آكل مال اليتيم طعامًا، أو بيتًا، أو ثوبًا، أو مالًا زاد في
حسابه. لكن القرآن يكشف الحقيقة التي حجبها لذة العاجلة: (إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا).

إنها صورة تقلب الحواس. فالمال الذي بدا ناعمًا في اليد يظهر في حقيقته
لهيبًا، واللقمة التي استلذها الفم تحمل عاقبتها في داخلها.

لم تأت النار من مكان بعيد لا صلة له بالفعل؛ بل خرجت من المال الحرام
نفسه حين كشفت حقيقته الأخروية.

لكل ظلم باطن لا تراه العين في الدنيا.

قد يبدو القصر جميلًا، لكن في جدرانها حقوق مسروقة. وقد تبدو المائدة
عامرةً، لكن بعض طعامها انتزع من فم يتيم. وقد يلبس الإنسان ثوب الثراء،
وهو في ميزان الحقيقة يلف نفسه بآثار مظلومه.

الآخرة تكشف الحقائق الأخلاقية التي حجبها زينة الدنيا. وما يزرعه الإنسان
هنا يلقاه هناك وقد اكتمل شكله.

وعظم الجريمة لا يرجع إلى المال وحده، بل إلى الجهة التي أخذ منها. فاليتم موضع رحمة، فإذا صار موضع افتراس انقلبت الفطرة. ولهذا جاءت العقوبة في صورة الأكل نفسه: أكلوا حقه في الدنيا، فأكلوا نارًا وإن لم يشعروا.

الآية ١١

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء: ١١].

ما أعظم افتتاح تفصيل الأنصبة بهذه العبارة: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ).

لم تقل: يوصيكم آبائكم، ولا تحدد لكم أعرافكم، بل (يُوصِيكُمُ اللَّهُ). وفي الوصية معنى العناية والتأكيد؛ كأن الرحمة الإلهية تدخل بيوت الفقء لتصون من بقي فيها.

هم أولادكم من جهة العاطفة والنسب، لكن الحقوق التي بينهم لا تُترك لعاطفتكم وحدها.

فقد يميل الأب إلى ولد أكثر من آخر، أو يظن أن القوي أجدر بالمال، أو يمنح من أطاعه ويحرم من خالفه. فجاءت قسمة الله لتقيم الحق حيث قد تميل المشاعر.

للذكر مثل حظ الأنثيين

لا تقرر هذه العبارة أن قيمة الرجل الإنسانية ضعف قيمة المرأة، ولا تضع قاعدةً تقول إن المرأة في جميع صور الميراث تأخذ نصف الرجل. إنما تبين نصيب الابن مع البنت في الحالة المذكورة.

فأنصبة المواريث تتنوع بحسب درجة القرابة، وموقع الوارث، ووجود ورثة آخرين. وقد تراث المرأة مثل الرجل في بعض الصور، وقد تراث أكثر منه، وقد تراث ولا يرث رجل يقابلها في صور أخرى.

الميراث لا يوزع الكرامة، بل يوزع المال داخل شبكة من الحقوق والتكاليف.

وفي النظام الأسري الإسلامي ألزم الرجل بأعباء مالية لم تُلزم بها المرأة على الوجه نفسه: من الصداق والنفقة ومسؤوليات الإعالة. فقد يأتيه نصيب أكبر في موضع، لكن تخرج منه حقوق واجبة، بينما يبقى مال المرأة حقاً لها.

وقد يأخذ بعض الرجال من التشريع ما يزيد حصتهم، ثم يتركون ما يثقل مسؤوليتهم. يأخذ الأخ ضعف أخته، ثم يتخلى عنها عند حاجتها. وهذه ليست مشكلةً في عدل القسمة، بل خيانة بشرية لمنظومتها.

الآباء والأبناء وحدود المعرفة

﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

قد يتخيل الإنسان أن ولدًا بعينه أنفع له، أو أن قريبًا أجدر بالمال من غيره، فيميل إليه. لكن علمه بالمستقبل محدود؛ فقد يأتيه النفع ممن لم يتوقع، وقد يخفى عليه من مصالح القسمة أكثر مما ظهر له.

﴿لَا تَدْرُونَ﴾.

كلمتان تضعان العقل البشري في حجمه الصحيح. ليست كل حكمة التشريع مكشوفةً لتقدير اتنا العاجلة، ولا تصلح ظنوننا المتقلبة أساسًا لنقض الفريضة.

ثم يأتي الحسم: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

ليست الأنصبة اقتراحًا اجتماعيًا، بل قسمة صادرة عن علم محيط وحكمة بالغة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

يعلم حقيقة الحاجات والصلات، ويشرع بحكمة لا يحيط البشر بكل وجوها. وما على العقل إلا أن يفهم ما استطاع، دون أن يجعل إدراكه المحدود شرطًا لطاعة الله.

الآية ١٢

(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) [النساء: ١٢].

بعد الأبناء والوالدين تنتقل الآية إلى الزوجين؛ فالميثاق الذي جمع بينهما في الحياة يترك أثره في المال بعد الموت.

قد رحل أحدهما، لكن صحبته لم تُمح من التركة. إن للزوج حقاً في مال زوجته، وللزوجة حقاً في مال زوجها. والمرأة التي كانت في الجاهلية قد تُعد جزءاً من الميراث، جعلها القرآن وارثة ذات نصيب محدد.

لقد نقلها الوحي من متاع يُورث إلى إنسان يرث.

وتتغير أنصبة الزوجين بوجود الولد؛ لأن دائرة المسؤولية اتسعت، ودخل إلى التركة أصحاب حقوق آخرون. وهكذا لا تُقسم الأموال بمنطق التفضيل العاطفي، بل ضمن توازن دقيق بين درجات القرابة.

الدين قبل رغبة الوارث

يتكرر في الآيتين: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

فالتركة لا تنتقل إلى الورثة خالصةً لمجرد موت صاحبها. تتعلق بها حقوق سابقة ينبغي أدائها. وما تركه الميت ليس كله ملكاً حرّاً للأحياء حتى تؤدي ديونه وتنفذ وصيته المشروعة.

وهنا يتعلم الوارث أن فرحه بالمال لا يسبق حق الآخرين. فالدائن الذي ينتظر ماله قد لا يكون حاضراً عند القسمة، لكن غيابه لا يمحو حقه.

الدَّيْن صوت التزام لم يسكته الموت.

وكم هو بليغ أن تذكر الوصية والدين في قلب آيات الميراث؛ لأن الإنسان حين يرى المال قريباً من يده قد ينسى العهود المتعلقة به. فنقول له الآية: لا تنتظر إلى ما سيصل إليك قبل أن تنتظر إلى ما يجب أن يخرج منه.

الحق يسبق الرغبة.

غير مضار

﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾.

حتى الوصية، وهي باب من أبواب البر، قد تتحول إلى وسيلة ظلم إذا استُعملت للإضرار بالورثة؛ كأن يصطنع الإنسان ديناً، أو يتحايل على الأنصبة، أو يجعل آخر قرارات حياته أداة انتقام ممن اختلف معهم.

إن الاسم الصالح لا يطهر القصد الفاسد. قد يسمى الفعل وصيةً، لكنه يكون في حقيقته مضارةً.

فالقرآن لا يكتفي بصورة الوثيقة، بل يدخل إلى النية التي وراءها. والإنسان قد يعجز في حياته عن الانتقام ممن غضب عليه، فيحاول أن يجعل ماله ينتقم بعد موته.

لكن المؤمن لا يخرج من الدنيا وهو يزرع خصومةً في بيته، ولا يحول التركة إلى رسالة غضب أخيرة.

ومن حسن الخاتمة أن يترك الإنسان وراءه عدلاً لا نزاعاً، وبياناً لا غموضاً، ووصية تجمع القلوب على البر لا وثيقة تشعل بينها العداوة.

الآية ١٣

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

أنصبة مالية وكسور حسابية، ثم جنات تجري من تحتها الأنهار!

كأن السورة تهدم الوهم الذي يفصل بين العبادة والمعاملة. فالدين ليس في المسجد وحده، والآخرة لا تتعلق بالصلاة والصيام بمعزل عن الأموال. قد يقف مصير الإنسان عند جزء من تركة أداه أو حبسه.

الدرهم في سورة النساء يحمل سؤال الآخرة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

الحد هو الفاصل الذي لا يجوز تجاوزه. وعند الميراث تشتد الحاجة إلى هذا المعنى؛ لأن الطمع بارع في تحريك الحدود. قد يرى الإنسان أن تأخير حق أخته لا يضر، أو أن حرمانها من الأرض يعوضه مال قليل، أو أن سلطته العائلية تمنحه حق إعادة القسمة.

لكن الحد لا ينتقل لأن صاحب المصلحة يريد له أن ينتقل.

ثم تربط الآية طاعة الله بطاعة الرسول؛ لأن الرسول ﷺ هو المبلغ والمبين، وعن طريق سنته عرف المؤمنون تفاصيل الأحكام وتطبيقاتها. ليست الطاعة إعلان قبول في اللسان، بل استجابة تظهر في الوثيقة والحساب وتسليم الحقوق.

﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ليس الفوز العظيم أن تخرج من القسمة بالنصيب الأكبر، بل أن تخرج من الدنيا بلا مظلمة. قد يربح الإنسان قطعة أرض، ويخسر بها طريقاً إلى الجنة. وقد يتنازل عن مال ليس له، فيظن الناس أنه خسر، بينما حفظ الله له الفوز العظيم.

الميراث ينتهي في أيدي الورثة، لكن الطاعة تمتد إلى الأبد.

الآية ١٤

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ)
[النساء: ١٤].

في مقابل الطاعة جاء العصيان، وفي مقابل الوقوف عند الحد جاء تعديه،
وفي مقابل الجنة جاءت النار.

إن الميراث ليس شأنًا عائليًا خاصًا يستطيع الناس أن يتسامحوا في تغييره.
إنهم يقفون عند حدود الله، ومن تجاوزها استحق الوعيد.

ووصف العذاب بأنه: (مُهِينٌ).

يناسب جريمة بُنيت على إهانة الضعيف واحتقار حقه. فمن استعلى على
شرع الله، واستعمل قوته لإذلال صاحب النصيب، لقي عاقبةً تهدم استعلاءه.

وقد يتزين الاعتداء في الدنيا بصورة الرجولة أو المحافظة على أملاك
الأسرة، لكنه في الآخرة يظهر تعدياً لحدود الله.

ليست المشكلة أن الإنسان أحب المال؛ فحب المال مركز في النفس، وإنما
أن يجعله أحب إليه من أمر الله، وأن يمد يده عبر الحد وهو يعلم أنه ليس له.

فالحدود لا تُختبر حين تكون بعيدةً عن المصلحة، بل حين تمر داخلها.

الآية ١٥

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا) [النساء: ١٥].

بعد حدود المال تنتقل السورة إلى حدود العرض؛ لأن المجتمع لا يقوم بحفظ الأموال وحدها، بل بحفظ الأنساب والبيوت والكرامة.

وقد جاء الحكم الوارد هنا في مرحلة مبكرة من التشريع، ثم جعل الله سبيلاً بما أنزل بعد ذلك من الأحكام. وهذا يعلمنا أن التشريع كان يربي المجتمع وينقله من جاهليته انتقالًا حكيمًا متدرجًا، حتى تستقر الأحكام في النفوس والواقع.

لكن قبل الحديث عن العقوبة، تقيم الآية حاجزًا عظيمًا أمام الاتهام:

(فاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ).

فالأعراض لا تُهدم بالظنون، ولا تُستباح السمعة بالشكوك، ولا يصبح كل ما يتناقله الناس حقيقةً شرعية.

إن المجتمع الذي يريد حماية العفة مطالب كذلك بحماية الأبرياء من القذف والتشهير.

فالفضيلة لا يحرسها الظلم.

وقد يظن بعض الناس أن غيرتهم على الأخلاق تبيح لهم التجسس والاتهام ونشر الأخبار. لكن الشرع الذي يصون العفة هو نفسه الذي يصون العرض من التهمة بغير بينة.

اتهام الإنسان في عرضه قد يقتله اجتماعياً بلا سكين، وقد تظل الكلمة تطارده بعد أن يظهر كذبها. لذلك لم يجعل القرآن السمعة مباحة لكل لسان يدعي الغيرة.

ثم قالت الآية: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾.

وفي العبارة إشعار بأن الحكم مرحلي، وأن باباً تشريعياً آخر سيأتي. لم تكن الشريعة سلسلة جامدة من التدابير المنفصلة عن واقع الناس، بل تربية إلهية تنتقل بالمجتمع حتى يتهيأ لما يستقر عليه الحكم.

الآية ١٦

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأُتُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

هذه هي الآية التي سقطت من الكتاب السابق، وها نحن نقف عندها في موضعها.

جاء فيها حكم من أحكام المرحلة الأولى في معالجة الفاحشة، ثم استقر التشريع بعد ذلك على ما بينته النصوص اللاحقة. غير أن المعنى التربوي الباقي في الآية بالغ العمق: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾.

لم تقل: فإن ندما بالسنتهما فقط، بل جمعت بين التوبة والإصلاح. فالتوبة عودة في الداخل، والإصلاح أثر يظهر في الخارج. يترك الإنسان طريق الذنب، ثم يرمم ما أفسده بقدر استطاعته.

قد ينطق المرء بالاستغفار بينما يحتفظ بالأسباب التي تعيده إلى المعصية. أما التوبة الصادقة فتغيّر الاتجاه، والإصلاح يثبت أن التغيير لم يكن مجرد انفعال عابر.

ثم يأتي الأمر للمجتمع: (فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا).

إذا صدقت التوبة وظهر الإصلاح، فلا تجعلوا الماضي سجنًا أبديًا. لا تستمروا في التعيير، ولا تحولوا الذنب القديم إلى اسم جديد يلتصق بالإنسان حتى بعد أن غيّر طريقه.

المجتمع الذي لا يسمح للمذنب أن يعود يدفعه أحيانًا إلى الإقامة في خطئه؛ إذ ماذا يفعل بالتوبة إذا كانت الألسنة ستظل تعاقبه إلى الأبد؟

والستر بعد التوبة ليس إنكارًا لقبح الذنب، بل اعتراف بقدره الرحمة على بناء إنسان جديد.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا).

الله يقبل رجوع عباده ويرحم ضعفهم. وإذا كان الله قد فتح للتائب باب القبول، فبأي حق يغلق البشر في وجهه أبواب الحياة؟

الآية ١٧

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء: ١٧].

بعد ذكر التوبة في الآية السابقة، تكشف هذه الآية طبيعة التوبة التي يُرجى قبولها.

(يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ).

ليست الجهالة هنا مقصورةً على عدم معرفة الحكم؛ فكل من عصى الله فقد تصرف في لحظة المعصية تصرف الجاهل بعظمة من عصاه، وبحقيقة ما يجلبه على نفسه، وإن كان يعرف الحكم بلسانه.

فالذنب لحظة يضيق فيها أفق الوعي؛ يرى الإنسان اللذة القريبة، ولا يرى العاقبة، ويسمع صوت الرغبة، ويضعف في قلبه استحضار نظر الله.

ثم قالت: (ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ).

التوبة القريبة تعني أن الذنب لم يتحول إلى وطن، وأن القلب ما زال يشعر بغربته عنه. يخطئ الإنسان، ثم يستيقظ، ويرى أن ما فعله لا يشبه العهد الذي بينه وبين الله، فيعود.

وكلما أسرع إلى التوبة، كان ذلك دليل حياة قلبه. فالجرح الذي يؤلم صاحبه يدفعه إلى العلاج، أما الجرح الذي مات حسه فقد يستمر في إفساد الجسد دون أن يشعر به.

والتسوية لا يبقى الإنسان على حاله. كل مرة يؤخر فيها التوبة، يعيد الذنب تشكيل حساسيته؛ فيصبح ما كان يفزعه أول مرة مألوفًا، ثم يصبح المألوف عاديًا، وربما صار العادي حقًا يدافع عنه.

(فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ).

العبد يعود إلى الله بالتوبة، والله يتوب عليه بالقبول والتوفيق والمغفرة. بدأت الحركة من قلب مكسور، وانتهت برحمة إلهية تمحو أثر الطريق القديم.

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا).

يعلم صدق التائب من انفعاله المؤقت، ويضع المغفرة والحكم في مواضعهما بحكمته.

الآية ١٨

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [النساء: ١٨].

في مقابل التوبة القريبة تقف التوبة المؤجلة إلى اللحظة التي ينكشف فيها الغطاء: (حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ).

عند حضور الموت لا يعود الإنسان واقفًا بين طريقتين يملك اختيار أحدهما. لقد بدأ يرى ما كان مأمورًا أن يؤمن به غيبًا، وانتهت مساحة الامتحان التي تمنح التوبة معناها.

إن قيمة العودة أنها تقع والإنسان لا يزال قادرًا على الاستمرار في المعصية، فيختار الله عليها. أما حين تسقط القدرة وتظهر النهاية، فلا يكون الترك مجاهدةً للهوى، بل عجزًا عن مواصلة الطريق.

وأخطر ما في التسويف أن الإنسان يتعامل مع المستقبل كأنه ملكه. يقول: سأتوب حين أكبر، أو حين أفرغ، أو بعد أن آخذ من الشهوة ما أريد. لكنه لا يعلم متى يحضر الموت، ولا بأي قلب سيستقبله.

قد يملك الإنسان قرار التوبة اليوم، لكنه لا يملك ضمان الغد.

ثم قرنت الآية بين هذا التأخير وبين الذين يموتون على الكفر؛ فالإصرار حتى النهاية يغلق على الإنسان الباب الذي ظل مفتوحًا طوال حياته، لا لأن رحمة الله ضاقت، بل لأن العبد لم يطلبها حتى زال زمن الطلب.

(أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا).

والألم هنا يناسب غفلةً طويلةً أهدر فيها العمر، وندمًا جاء حين لم يعد يملك صاحبه أن يحوله إلى عمل.

خاتمة الفصل

المال الذي يبقى والإنسان الذي يرحل

جمع هذا المقطع بين الميراث والتوبة، وقد يبدو أن لأول وهلة موضوعين متباعين؛ غير أن بينهما خيطاً عميقاً: كلاهما يضع الإنسان أمام النهاية.

الميراث يخبره أن يده ستتسحب من ماله، والتوبة تخبره أن زمن اختياره سينتهي. هناك ساعة لن يستطيع بعدها أن يعدل وصيةً، ولا يرد مظلمةً، ولا يقول: سأعود غداً.

كان الميت بالأمس يتصرف في ماله، يبيع ويشترى ويمنح ويمنع. فلما جاء الموت خرجت الأشياء من يده، وبقيت عليه تبعات الطريقة التي اكتسبها وأنفقها بها.

وهذا هو معنى الملك البشري: نملك زمناً محدوداً، ثم تخرج الممتلكات من أيدينا، ويبقى أثر العدل أو الظلم في صحائفنا.

إن أجمل تركة لا تتمثل دائماً في كثرة المال، بل في وضوح الحقوق وسلامة الصدور. يكتب الإنسان ديونه، ويبين أماناته، ولا يجعل الغموض ميراثاً، ولا يترك أبناءه يتقاتلون على أمر كان يستطيع توضيحه.

ومن حسن الرحيل أن يترك المرء وراءه عدلاً لا خصومة.

ثم إن السورة، بعد أن أقامت حدود المال، لم تجعل من وقع في الذنب أسيرًا له. فتحت باب التوبة، لكنها نبهته إلى أن الباب المفتوح ليس بابًا مؤجلًا إلى الأبد.

فكما أن المال سيخرج من يدك، سيخرج القرار أيضًا. وكما أن الورثة ينتظرون ساعة رحيلك، فإن الأجل يسير إليك وإن لم تره.

ولهذا يخرج القلب من الآيات ٧-١٨ بحقيقتين:

أدّ الحقوق قبل أن تُنتزع الأشياء من يدك، وتُب قبل أن يُنتزع الاختيار من قلبك.

الفصل الثالث

الْبَيْتُ الَّذِي يَبْنِيهِ الْمِيثَاقُ الْعَلِيظُ

مِنْ حُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ إِلَى مَسْئُولِيَّةِ الْقَوَامَةِ وَإِصْلَاحِ الشَّقَاقِ

بعد أن حمت السورة مال اليتيم، وقسمت التركة، وفتحت باب التوبة، تدخل إلى البيت؛ إلى الموضع الذي تتجاوز فيه الرحمة والقدرة، ويتعرف فيه كل طرف إلى مواضع ضعف الآخر.

والبيت هو أشد الأمكنة حاجةً إلى التقوى؛ لأن كثيراً مما يجري فيه لا يراه الناس. قد يبدو من الخارج ساكناً جميلاً، بينما تعيش خلف جدرانه نفس محاصرة، أو حق مأكول، أو كلمة تتحول كل يوم إلى جرح جديد.

ولهذا لا تترك سورة النساء الأسرة للعاطفة وحدها. فالعاطفة قد تقوى وتضعف، وقد يداخلها الغضب والملل وحب التملك. أقامت حول العلاقة حدوداً وحقوقاً، وردتها إلى الله الذي أبرم العهد باسمه.

الآية ١٩

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

تكشف الآية عالمًا كانت المرأة فيه تُعامل كأنها جزء من تركة الرجل؛ يُورث المال وتُورث معه صاحبة القلب والإرادة. فجاء القرآن لينقلها من خانة المتاع إلى مقام الإنسان الذي لا تصح مصادرة اختياره.

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾.

الجاهلية ليست زمنًا مضى فقط؛ إنها فكرة تعود كلما عومل الإنسان باعتباره شيئًا. فقد لا يقال اليوم إن المرأة تُورث، لكن قد تُسلب إرادتها باسم العرف، أو تُحبس في علاقة مؤذية حفاظًا على صورة الأسرة، أو تُجعل حياتها جزءًا من أملاك غيرها.

وحين قال الله: ﴿كَرِهًا﴾، أعاد للإرادة مكانها في بناء البيت. فلا يُبنى السكن بالإكراه، ولا تُستخرج المودة من قلب مسحوق.

ثم نهت الآية عن العضل: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾.

العضل حبس وتضييق. قد لا يطرد الرجل زوجته، لكنه يصنع حولها حياة ضيقة حتى تتنازل عن حقها مقابل الخلاص. وهنا يكشف القرآن لونا خفيا من الابتزاز: أن يستعمل الإنسان العلاقة نفسها أداة ضغط.

قد لا يمد يده إلى مالها مباشرةً، لكنه يحاصر روحها حتى تدفع ثمن نجاتها. وما تنازل عنه الإنسان تحت وطأة الإهانة لا يتحول إلى مال طيب لمجرد أن الأوراق وصفته بأنه تنازل.

ثم يأتي الأمر الجامع: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

المعاشرة هي الحياة حين تمتد؛ صباحات متكررة، وأيام تعب، واختلاف في الطباع، وتحول في الصحة والجمال والقدرة. إنها أخلاق الإنسان حين تسقط أقنعة المناسبات.

والمعروف أكثر من أداء الحد الأدنى من الحقوق؛ إنه احترام في الخطاب، ورفق عند الضعف، وعدل في النفقة، وصيانة للسر، واحتمال لاختلاف الطباع.

المعروف أن يشعر من يعيش معك أن كرامته آمنة.

ثم تعترف الآية بإمكان وقوع الكراهة: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾.

لا تبني حكمها على مشاعر مثالية لا تتغير، لكنها تمنع الإنسان من تحويل النفور إلى ظلم. فالمشاعر أخبار عن النفس، وليست دائماً أحكاماً عادلة على الآخرين.

قد يكره المرء خُلُقًا ويغفل عن أخلاق كثيرة جميلة، وقد يحجب الاعتقاد عنه نعمًا لم يعد يراها. فتفتح الآية نافذة في جدار الانفعال: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

ليس كل ما تكرهه شرًّا خالصًا، ولا كل ما تحبه خيرًا خالصًا. معرفتك محصورة في لحظتك، أما علم الله فمحيط بما لا ترى.

الآية ٢٠

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠].

حتى حين تنتهي العلاقة، لا ينتهي العدل.

قد يظن الإنسان أن تغير مشاعره يسمح له باستعادة ما أعطى، أو اختلاق التهم ليضغط على زوجته، أو تشويه الماضي حتى يبرر الحاضر. لكن الآية تفصل بين حق الإنسان في إنهاء العلاقة وفق الشرع، وبين توظيف الانفصال لأكل المال.

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾.

حتى لو كان المال كثيرًا، فقد خرج من ملك الرجل واستقر حقًا للمرأة. وكثرة ما أعطاه لا تمنحه رخصة استرداده حين تتغير رغبته.

ثم تسمى الآية الأخذ باسمه الحقيقي: ﴿بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

فقد يحتاج من يريد استرداد المال إلى اتهام المرأة وإلصاق ما ليس فيها بها. وهكذا يلتقي أكل المال باغتيال السمعة؛ يُصنع البهتان ليصبح جسرًا إلى المال.

إن الحقوق لا تتغير بتغير المشاعر، والمال الذي خرج بحق لا يعود حلالاً لأن المودة انتهت.

الآية ٢١

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُم إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا) [النساء: ٢١].

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ).

ليس السؤال طلباً للمعلومة، بل إيقاظ للحياء. كيف تمتد اليد إلى مالها بعد ذلك القرب كله؟

(وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُم إِلَىٰ بَعْضٍ).

الإفضاء بلوغ مساحة لا يصل إليها الآخرون؛ قرب الأجساد، وانكشاف الأسرار، وسقوط الحواجز، وظهور الإنسان أمام زوجه في ضعفه الذي يخفيه عن العالم.

وهذه المساحة الحميمة تنشئ حرمة لا ينبغي أن تزول بزوال العلاقة. فالإنسان الشريف لا يستعمل معرفةً اكتسبها في زمن الأمان ليؤذي بها عند الخصومة.

قد ينتهي الزواج، لكن السر يبقى أمانة. وقد يفترق الطريقان، لكن ذلك لا يبيح لأحدهما أن يهدم كرامة من شاركه بعض العمر.

ثم تسمى الآية الزواج: ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

إنه ليس مناسبة عاطفية تنتهي حين تخفت حرارة الشعور، بل عهد له وزن عند الله. ووصفه بالغلظة ليس غلظة في المعاشرة، وإنما شدة في حرمة العهد وثقل مسؤوليته.

الميثاق غليظ؛ ولذلك ينبغي أن تكون العشرة رفيقة. والعهد ثقيل؛ ولذلك لا يجوز أن تكون القلوب مستباحة.

فالمرأة لا تدخل بيتًا بلا ضمان أخلاقي، بل تدخل تحت كلمة أعطيت أمام الله. فإذا استعمل الرجل صلاحياته لنقض الأمان الذي قام عليه الميثاق، لم يظلم امرأة فحسب، بل خان عهدًا غليظًا.

الآية ٢٢

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

هذه آية أخرى سقطت من البناء السابق، وهي تغلق بابًا من أبواب الجاهلية كان يخلط فيه المال بالنساء ويهدم حرمة الأبوة.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾.

لا تبقى زوجة الأب بعده امرأة أجنبية تدخل دائرة الرغبة، بل تنشأ بالمصاهرة حرمة تحفظ مقام الأب وتحمي بنية الأسرة من الاختلاط.

فالأُسرة لا تستقر بالأسماء وحدها، وإنما بالحدود التي تمنح كل علاقة معناها. الأبوة لها حرم، والأمومة لها حرم، والأخوة لها حرم. وإذا ذابت الحدود، تحول البيت من موضع أمان إلى فضاء يترصد فيه الإنسان أقرب الناس إليه. (إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ).

لا يحمل التشريع الجديد الإنسان تبعة ما وقع قبل علمه بالحكم واستقراره، لكنه يقطع الطريق من لحظة البيان. إن رحمة الله لا تلغي وضوح الحد، ووضوح الحد لا يلغي رحمته بالماضي الذي انقضى.

ثم وصفت الآية الفعل بثلاثة أوصاف: (فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا).

هو قبيح في ذاته، موجب للبغض الشديد، وطريق سيئ في آثاره. فبعض المحرمات لا تفسد لحظةً عابرةً، بل تهدم شبكة المعاني التي يقوم عليها البيت.

الآية ٢٣

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَأَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) [النساء: ٢٣].

تفصل الآية دوائر الحرمة بالنسب والرضاع والمصاهرة. وهذه الحدود لا تضيق الحياة، بل تحمي الأسرة من أن تتحول كل علاقة فيها إلى احتمال شهواني.

الأم ينبغي أن تبقى أمًا، والبنت بنتًا، والأخت أختًا. لكل رابطة حرمتها الخاصة التي تمنح البيت أمانه.

لو ذابت هذه الحدود لعاش الإنسان في أكثر الأماكن قربًا منه وهو يخشى من يفترض أن يكونوا موضع أمانه.

فالمحرمات لا تحمي الأنساب وحدها، بل تحمي المعاني: تحفظ للأئمة طهرها، وللأخوة عفتها، وللعلاقة بين الأقارب نقاءها من التنافس الشهواني.

ثم تلحق الرضاعة بالنسب؛ فاللبن الذي غذى الجسد أنشأ رابطة لها حرمتها. ليست الأسرة دمًا فقط، بل رعاية وقرب وتكوين مشترك.

وتدخل المصاهرة كذلك في بناء هذه الحدود، لأن الزواج لا يصل بين فردين وحدهما، بل ينشئ شبكة من الحرمات والروابط. ولهذا كان العقد حدثاً اجتماعياً وأخلاقياً، لا لقاءً عابراً بين رغبتيين.

أما النهي عن الجمع بين الأختين، فإنه يحمي صلة الرحم من أن تتحول إلى غير زوجية قد تمزق ما بينهما. فالشرع لا ينظر إلى صحة العلاقة منفردة فقط، بل إلى أثرها في شبكة العلاقات المحيطة بها.

ثم تختتم الآية: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا).

يغفر ما سلف قبل استقرار الحكم، ويرحم الناس بحدود تحمي بيوتهم من الفوضى. فالتحريم هنا ليس حرماناً مجرداً، بل رحمة ترسم لكل عاطفة طريقها النظيف.

الآية ٢٤

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء: ٢٤].

تضيف الآية إلى المحرمات النساء المتزوجات؛ لأن عقد الزواج حصن لا يجوز لرغبة أخرى أن تفتحه. فالمرأة المرتبطة بميثاق ليست مساحة مفتوحة للمنافسة، بل لها عهد يجب أن يُصان.

أما ما تعلق بملك اليمين فهو حكم في سياق تاريخي وتشريعي كانت فيه مؤسسة الرق قائمةً في العالم، فجاء الإسلام يضيّق منابعها ويوسع أبواب التحرير ويحيط ما بقي منها بالأحكام والحقوق، حتى لا يكون الإنسان متاعاً بلا حرمة. ولا يصح نقل هذه الأحكام إلى واقع زال فيه سببها ونظامها الشرعي.

ثم قالت الآية: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

أي الزموا ما كتبه الله من الحدود. ليست دوائر الحلال والحرام خاضعةً لتغير الرغبة، بل هي كتاب مفروض يحفظ الأنساب والعهود.

وبعد بيان المحرمات فتحت الآية دائرة المباح: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾.

فالشرعية لا تحاصر الفطرة، بل تمنحها طريقاً واسعاً مشروعاً، بشرط أن يكون الطلب: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.

الإحصان من الحصن؛ فالزواج يبني حمايةً حول النفس والطرف الآخر والنسب والمجتمع. أما السفاح فيأخذ اللذة ويفر من المسؤولية.

الفرق بين الزواج والسفاح ليس كلمات تقال فقط، بل الفرق بين رغبة تعترف بإنسانية الآخر، وشهوة تستعمله ثم تتركه يواجه الآثار وحده.

ثم عادت السورة إلى الحق المالي: ﴿فَأَنؤُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

فالصداق ليس وعدًا مؤجلًا بلا وزن، بل فريضة. وما تراضى عليه الطرفان بعد الفريضة من إسقاط بعض الحق أو تعديله، فلا حرج فيه إذا كان رضا حقيقيًا لا يخفي إكراهًا.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا).

يعلم ما في القلوب من رضا أو ضغط، ويشرع بحكمة تحفظ الرغبة من أن تتحول إلى استغلال.

الآية ٢٥

(وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَاذْكُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تُصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [النساء: ٢٥].

تعالج الآية واقعًا تاريخيًا كان الرق جزءًا منه، لكنها لا تسمح لذلك الواقع أن يمحو الكرامة الإيمانية.

قالت عن الإمام: (مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ).

اختارت كلمة (فِتْيَاتِكُمُ) بما تحمله من قرب ولطف، ثم قالت: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ).

تهدم العبارة غرور الطبقات. قد تكون المرأة أمةً في وضعها الاجتماعي، لكنها أعلى عند الله بإيمانها من حرة خلت من التقوى. فالمواقع الأرضية لا تكشف أقدار القلوب.

(بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ).

أنتم من أصل إنساني واحد، يجمعكم الإيمان، فلا تجعلوا الوضع الاجتماعي حاجزًا يحجب الأخوة الإنسانية.

ثم تحفظ الآية حقوق الزواج: الإذن، والصداق بالمعروف، والإحسان والعفة. ليست الأمة جسدًا مباحًا، بل امرأة لها عقد وحق وحرمة.

(مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ).

ذكرت صورتين للانحراف: السفاح الظاهر، والعلاقة الخفية. فالخطأ لا يصير طاهرًا لأنه ابتعد عن أعين الناس، والسر لا يغير حقيقة الفعل.

والخدن علاقة خفية تستعمل لغة القرب، لكنها تهرب من العهد. تريد حضور الإنسان في السر، ولا تريد تحمل مسؤوليته في العلن.

ثم راعت الآية تفاوت الأحوال في العقوبة؛ فمن لم تكن في منزلة الحرية في تمام الحماية الاجتماعية لم تُجعل عقوبتها مثل عقوبتها. وهذا يكشف أن العدالة القرآنية تراعي ظروف الإنسان وواقعه، ولا تفصل الفعل عن مقدار الحماية والوعي المحيطين به.

وتختتم الآية بتفضيل الصبر مع فتح الرخصة لمن خشي المشقة: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إنه تشريع يعرف الضعف، ويمنح المخرج، لكنه يدل على الأكمل.

الآية ٢٦

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾
[النساء: ٢٦].

بعد كثرة الأحكام والتفاصيل، تكشف السورة المقصد الذي وراءها: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

التشريع بيان، لا متاهة. يريد الله أن يخرج الإنسان من اضطراب الهوى إلى وضوح الطريق، وأن يعرف أين يقف وأين يمضي.

فالإنسان إذا لم يجد حدًّا من الوحي، وضع حدوده بنفسه، ثم أخذ يحركها كلما تحركت شهوته.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أنتم لستم أول بشر تُختبر رغباتهم، ولا أول أمة تحتاج إلى الأسرة والعفة والعدل. مضت قبلكم سنن وشرائع، والحق الذي ينظم الفطرة متصل في رسالات الله.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

ليس غرض الأحكام أن تحاصر الإنسان حتى يسقط، بل أن تعيده حين يضل.
فالبیان يمنع الانحراف، والتوبة تعالج ما وقع منه.

ثم يأتي الاسمان: (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

يعلم ضعف الطبيعة البشرية، ويشرع لها بحكمة؛ فلا إباحة تطلقها حتى تهلك،
ولا تكاليف تتجاهل حقيقتها.

الآية ٢٧

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا
عَظِيمًا) [النساء: ٢٧].

تكشف الآية إرادتين متقابلتين: إرادة الله بكم أن تتوبوا وتستقيموا، وإرادة
اتباع الشهوات أن تميلوا ميلًا عظيمًا.

لم يقل: يريدون أن تقعوا في خطأ صغير، بل: (أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا).

فالشهوة لا تكتفي غالبًا بأن تأخذ من الإنسان خطوة. إنها تريد إسقاط الحد من
قلبه، حتى يصبح الطريق كله مفتوحًا.

يبدأ الانحراف باستثناء صغير، ثم يتحول الاستثناء إلى عادة، ثم تبحث العادة
عن فلسفة تمنحها الشرعية. وكل حد يسقط يجعل الحد التالي أضعف.

وأتباع الشهوات قد يقدمون الميل في صورة تحرير. لكن الحرية التي تجعل
الإنسان عاجزًا عن قول «لا» لرغبته ليست حرية؛ إنها عبودية بلغة جذابة.

قد يبدأ المرء مالكا لاختياره، ثم ينتهي أسيرا لما اعتاده. وما بدأ لذة عابرة يتحول إلى حاجة تقوده حيث لا يريد.

وفي مقابل هذا الميل العظيم تقف إرادة الله بالتوبة؛ إرادة ترد الإنسان إلى مركزه، وتجمع شتات قلبه، وتنقذه من أن يصبح تابعا لكل رغبة تمر به.

الآية ٢٨

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) [النساء: ٢٨].

هذه من أرق الآيات التي تفسر فلسفة التشريع: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ).

كم يخطئ من يظن أن كل حد عبء، وأن كل منع تضيق! فقد يكون المنع نفسه تخفيفا من ألم لم تره، وحماية من تعلق يستهلكك، ونجاة من عاقبة ستثقل بقية عمرك.

الرغبة تنظر إلى اللحظة، والحكمة تنظر إلى الطريق كله.

يرى الإنسان في الشهوة وعدا سريعا باللذة، ولا يرى ما قد يتبعها من انكسار وغيره وضياح نسب وهدم بيت وقلق دائم. والله يعلم ما لا يراه الإنسان في لحظة اندفاعه، فيضع له العلامة التي تمنعه من السقوط.

ثم تعرفه الآية بنفسه: (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا).

ضعيف أمام الجمال، وضعيف أمام الوحدة، وضعيف أمام الإغراء، وضعيف حين تجتمع الرغبة مع الفرصة والخفاء.

ولا يعالج القرآن هذا الضعف بإهانة الإنسان، بل بالتخفيف عنه، وفتح الطريق المشروع، وإغلاق المسالك التي تستنزفه.

الحدود اعتراف بضعف الإنسان، ولذلك هي رحمة به.

فالقوي المتوهم يقول: أدخل كل فتنة ثم أضبط نفسي. أما من عرف ضعفه فإنه لا يختبر قلبه في كل موضع، ولا يقترب من النار ليثبت أنه لا يحترق.

الآية ٢٩

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) [النساء: ٢٩].

تنتقل السورة من شهوة الجسد إلى شهوة المال؛ فالمصدر الداخلي واحد: رغبة تريد أن تأخذ دون أن تقف عند حق الآخر.

قالت: (أَمْوَالَكُم).

مع أن لكل إنسان ماله، وفي التعبير إشارة إلى أن أموال المجتمع نسيج مترابط. فإذا انتشر الغش والرشوة والخيانة، لم يتضرر فرد واحد فقط، بل تآكلت الثقة التي يقوم عليها التبادل كله.

(بَيْنَكُمْ).

المال يتحرك بين الناس، ومن واجب المجتمع أن يجعل طرق حركته نظيفة. لا يكفي أن يكون المال في يدك حتى يكون حلالاً؛ المهم: بأي طريق وصل إليها؟

قد يحمل الإنسان وثيقة قانونية، لكن المال جاءه بالخداع. وقد يحصل على توقيع، لكن صاحبه أكره بالحاجة. وقد يربح صفقة، لكن المعلومات الحاسمة أُخفيت عن الطرف الآخر.

ولهذا اشترطت الآية: ﴿تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾.

التراضي ليس كلمة شكلية تُكتب في العقد؛ إنه رضا مبني على العلم وحرية الاختيار. فالذي خُدع لم يرض بحقيقة ما أخذ، والذي أكره لم يمنح إرادته.

ثم اتصل النهي عن أكل المال بالنهي عن قتل النفس: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

يشمل النهي قتل الإنسان نفسه وقتل بعضكم بعضاً؛ فأنفس المؤمنين كالنفس الواحدة. والاعتداء على المال والاعتداء على الحياة يخرجان من جذر واحد: استباحة الإنسان.

وما أبلغ الخاتمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

ينهاكم عن قتل أنفسكم رحمةً بكم. فحياتكم ليست شيئاً هيناً، وأجسادكم أمانة حتى على أصحابها.

وقد يقتل المجتمع أفرادَه دون سلاح ظاهر؛ حين يحاصرهم بالجوع، أو يحبس أجورهم، أو يبني اقتصاده على استنزاف الضعفاء. لذلك جاء أكل المال وقتل

النفس متجاوزين؛ فكم من مال أكل فمرض صاحبه، وكم من حق حُبس فجاع بيت، وكم من فساد اقتصادي تحول في النهاية إلى أرواح تُزهق. المال قد يكون حياةً مخزونة.

الآية ٣٠

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) [النساء: ٣٠].

تسمي الآية الفعل باسمه: ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾.

العدوان تجاوز الحد، والظلم سلب الحق ووضع الشيء في غير موضعه. وقد يَجْمَلُ الإنسان فعله بأسماء كثيرة، لكن القرآن يعيده إلى حقيقته الأخلاقية.

لا يبدأ المعتدي دائماً مجرمًا كبيرًا في نظر نفسه. قد يبدأ بتبرير تجاوز صغير، ثم يألفه، ثم تتسع داخله قابلية العدوان.

ومن استصغر الظلم لأنه وقع على إنسان ضعيف لم يفهم أن عظم الجريمة لا يحدده مقدار مقاومة الضحية، بل حرمة الحق الذي انتهكه.

(فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا).

النار ليست بعيدةً عن بنية الظلم؛ فالذي أحرق حياة الناس بعدوانه يحمل إلى آخرته المادة التي أوقد بها عذابه.

(وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا).

لا تحمي الظالم قوته، ولا يثقل حساب الخلق على الله، ولا تضيع جريمة لكثرة الجرائم. كل شيء محفوظ في العلم الإلهي، وإقامة العدل على الخلق جميعاً يسيرة على من أحاط بكل شيء قدرةً وعلماً.

الآية ٣١

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ) [النساء: ٣١].

بعد الوعيد تفتح السورة باب الرجاء. فالله لا يريد للإنسان أن يعيش تحت شعور دائم بأنه عاجز عن النجاة.

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ).

الاجتناب أبلغ من مجرد الترك؛ فيه معنى أن يجعل الإنسان بينه وبين الكبيرة جانباً ومسافة. لا يدور حول أبوابها، ولا يختبر نفسه بمقدماتها، ولا يقول: سأقترب ثم أعود.

من عرف ضعفه أبعد نفسه عن المواضع التي تهزم إرادته.

ثم يأتي الوعد: (نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ).

في مقابل ضعف الإنسان توجد رحمة تمحو، وفي مقابل كثرة الزلل باب عفو. لا يطلب الله من الإنسان عصمةً لم يخلقها فيه، لكنه يطلب تعظيم حدوده واجتناب كبائر ما نهى عنه.

ثم لا تقتصر الثمرة على محو السيئات: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

ليس دخولاً فحسب، بل دخول تحيط به الكرامة. فالذي صان نفسه عن مواطن الهوان في الدنيا يُدخل في الآخرة مدخلاً كريماً.

الآية ٣٢

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾
[النساء: ٣٢].

بعد حدود المال والجسد تضع السورة حدًّا أمام شهوة المقارنة.

قد لا يمد الإنسان يده إلى مال غيره، لكنه يظل يأكله في خياله؛ يراقب ما أُعطي الناس، ويشعر أن كل نعمة وصلت إليهم قد انتزعت من نصيبه.

والتمني المنهي عنه ليس التطلع إلى الخير ولا الرغبة في تحصيل الفضائل، بل التمني الذي يعترض على قسمة الله، أو يتمنى زوال النعمة عن صاحبها.

إنه يجعل الإنسان يعيش خارج حياته، مشغولاً بمقادير الآخرين حتى يهمل ما وُضع في يده.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾.

لكل إنسان مساحته من السعي والتكليف والجزاء. والاختلاف في الوظائف والقدرات لا يعني تفاوتًا في أصل الكرامة، كما أن المساواة في الكرامة لا تعني محو كل اختلاف.

ثم توجه الآية الرغبة إلى بابها النظيف: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

بدل أن تحرق في أيدي الناس، ارفع حاجتك إلى من لا تنفذ خزائنه. فطاء الله لإنسان لا يعني أن أبواب العطاء أغلقت دونك.

الحسد ينظر إلى الخلق، والدعاء ينظر إلى الخالق.
الحسد يستهلك القلب، والدعاء يفتح له أفقًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

يعلم ما يصلح لكل عبد، وما أخفاه المنع من رحمة، وما أودعه العطاء من امتحان.

الآية ٣٣

(وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) [النساء: ٣٣].

تقرر الآية أن لكل تركة مستحقين جعلهم الله أولياء في الميراث وفق أحكامه. فالمال لا يسقط بعد الموت في أرض مباحة، بل ينتقل عبر شبكة محددة من الحقوق.

كما تذكر العهود التي عقدتها الأيمان، وما ثبت لأصحابها من حقوق في المرحلة التشريعية التي عالجت بها الشريعة روابط المؤاخاة والنصرة، قبل استقرار الميراث على القرابات التي بينها الله.

والقاعدة الباقية: (فَأَتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ).

كل رابطة صحيحة تنشئ حقاً يجب أدائه. لا يكفي أن يذكر الإنسان العهد بلسانه، ثم ينسى ما رتبه عليه حين يحضر المال.

ثم تختتم الآية: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا).

يشهد العقود والعهود، ويعلم ما اتفق عليه الناس، وما أخفوه، وما أدوه، وما أنكروه بعد موت أصحابه.

قد يموت أحد طرفي العهد، فيظن الآخر أن الشاهد الذي يطالبه قد غاب، لكن الله شهيد لا يموت. وما عجز الميت عن المطالبة به لم يخرج من الحساب.

الآية ٣٤

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

القوامة قيام على شؤون الأسرة بالحفظ والرعاية والتدبير وأداء الواجب. وليست شهادة بأن كل رجل أفضل من كل امرأة في كل شيء، ولا تفويضاً مفتوحاً بالاستبداد.

قالت الآية: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

فجاء التعبير بالتفضيل المتبادل بين بعض وبعض، لا بتقرير أن جنساً يملك أصل الإنسانية والآخر تابع له. ثم ربطت القوامة بالمسؤولية المالية: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

فهي ليست لقب تشريف يناله الرجل بلا كلفة، بل تكليف يطالبه أن يحمل العبء ويصون البيت ويؤدي الحقوق.

المشكلة تبدأ حين يأخذ الإنسان من القوامة سلطة القرار، ويترك واجب الرعاية؛ يحتفظ بما يراه امتيازاً ويتخفف من التكليف. وهذه ليست قوامة، بل انتقاء من النص لما يخدم الهوى.

القائم على الشيء هو الذي ينهض إذا ثقل، ويسد الخلل إذا ظهر، ويبذل من نفسه وماله ليحفظ من تحت مسؤوليته. إنه أول من يتحمل، لا أول من يطالب بالخضوع.

ليست القوامه أن يكون صوت الرجل أعلى، بل أن تكون مسؤوليته أثقل. ثم تصف الآية الزوجات الصالحات: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾.

يحفظن في غياب الأزواج ما يجب حفظه من النفس والمال والبيت والسر، مستعينات بحفظ الله وتوفيقه. فالبيت لا تحرسه الجدران وحدها، بل أمانة الغيب؛ أن يظل العهد حاضرًا حين يغيب الطرف الآخر.

ثم تعالج الآية حالة النشوز التي تهدد بنية الحياة الزوجية، فتضع تدرجًا في العلاج: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾.

تبدأ بالكلمة التي توقظ القلب وتعيد المعنى إلى موضعه. فلا يقفز العلاج إلى الإجراء الأشد قبل استنفاد الحوار والنصح.

ثم: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾.

هجر داخل البيت يدل على خطورة الخلل، لكنه يبقي المشكلة في نطاقها ولا يحولها إلى فضيحة اجتماعية.

ثم يأتي الإجراء الأخير: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾.

وهو مقيد بسياق الإصلاح، وبالهدي النبوي الذي منع الإيذاء والضرب المبرح وضرب الوجه والإهانة، وجعل ترك الضرب والرفق هو الأكمل والأقرب إلى حسن العشرة. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه لم يضرب امرأة ولا خادماً، وكان خير الناس لأهله.

فلا يجوز أن تُنتزع الكلمة من سياق الميثاق والمعروف وتحريم البغي، لتصبح رخصة للغضب أو الانتقام. كل ضرب مؤذٍ أو مهين أو مبرح عدوان محرم، وليس تطبيقاً للآية.

والآية لا تعطي الرجل سلطة معاقبة المرأة على كل اختلاف أو تقصير، بل تعالج نشوراً يهدد كيان الأسرة، ضمن تدرج غايته الإصلاح لا الإذلال.

ثم تغلق باب التوسع والانتقام: ﴿فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

لا تتعقبوا الزلات، ولا تستديموا العقوبة، ولا تجعلوا الماضي طريقاً لإبقاء المرأة تحت التهديد. فإذا زال سبب الإجراء انتهى، ومن بحث بعد ذلك عن سبيل للإيذاء فقد دخل في البغي.

ثم يجيء الاسمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

إن كنت أعلى قدرةً داخل البيت، ففوقك العلي سبحانه، وإن خُيل إليك أنك كبير بما تملك من سلطة، فالله أكبر منك، وقدرته محيطة بك.

حين يخشى أن تستطيل قوة إنسان على إنسان، تضعه الآية تحت جلال القوة التي لا تعلوها قوة.

الآية ٣٥

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا) [النساء: ٣٥].

إذا بلغ الخلاف حد الشقاق، لم تترك السورة الزوجين يدوران داخل الجرح نفسه. أخرجت المشكلة إلى حكمين يحملان عقلاً أبرد من نار الخصومة، ويستطيعان رؤية ما لا يراه الغاضبان.

الخلاف حين يطول يغير طريقة النظر. لا يعود كل طرف يسمع كلام الآخر، بل يسمع تاريخاً متراكماً من الألم وراء كل كلمة. وقد تصبح العبارة الصغيرة حاملةً أعواماً من العتاب.

عندئذ يحتاج البيت إلى عين من خارجه، لا لتفضحه، بل لتنقذه من الدوران حول نفسه.

(حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا).

العدل لا يستمع إلى صوت واحد، والإصلاح لا يبني على إدانة مسبقة لطرف وإعفاء الآخر. لكل قصة وجهان، ولكل قلب ألم ينبغي أن يُسمع.

لكن القرابة لا ينبغي أن تحول الحكمين إلى محاميين متخاصمين؛ فوظيفتهما الإصلاح، لا نصره كل واحد لقريبه ولو كان مخطئاً.

ثم تضع الآية يدها على قلب العملية: (إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا).

ليست المشكلة دائماً في نقص الحيل، بل قد تكون في فساد الإرادة. قد يدخل الوسيط ليجمع الأدلة ضد طرف، أو ليحفظ صورة الأسرة ولو على حساب المظلوم. أما إذا صدقت إرادة الإصلاح، فتحت للتوفيق أبواب لا تفتحها المهارة وحدها.

والإصلاح لا يعني إبقاء البيت قائماً بأي ثمن، بل إعادة العدل والمعروف إليه. فقد يكون الجمع خيراً إذا أمكن السكن، وقد يكون الفراق أرحم إذا تحولت الحياة إلى أذى دائم.

المقصد ليس إنقاذ صورة البيت أمام الناس، وإنما إنقاذ الإنسان داخل البيت.
(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيرًا).

يعلم ما تخفيه الصدور من رغبة في الإصلاح أو الانتقام، وخبير بالدقائق التي قد تعجز الكلمات عن نقلها.

خاتمة الفصل

البيت الذي لا يخاف أهله من بعضهم

بدأ الفصل بمنع وراثته النساء كرهاً، وانتهى بإرسال حكمين حين يهدد الشقاق البيت. وبين الآيتين بنت السورة شبكةً متكاملةً لحماية الأسرة:

حفظت إرادة المرأة، ومنعت ابتزازها.

وحفظت صداقها، حتى عند الفراق.

وسمت الزواج ميثاقاً غليظاً.

وأقامت الحرمات التي تصون الأسرة من اختلاط العلاقات.
 وفتحت للرغبة طريق الإحسان.
 وحذرت من الميل العظيم وراء الشهوات.
 وحمت المال والحياة من العدوان.
 وضبطت القوامة بالإنفاق والمسؤولية وتحريم البغي.
 وجعلت للشقاق طريقاً إلى التحكيم والإصلاح.

ليس البيت في سورة النساء جدراناً تجمع الأجساد، بل عهداً يحرس الإنسان في أكثر حالاته انكشافاً. ولذلك لا تكون عمارته بكثرة أثاثه، بل بمقدار الأمان الذي يسكنه.

قد يكون البيت واسعاً، والروح لا تجد فيه موضعاً تتنفس منه. وقد يكون قليل المتاع، لكنه غني بالسكينة؛ لأن كل قلب يعرف أن الآخر لن يستعمل ضعفه ضده.

البيت الحقيقي هو المكان الذي تستطيع فيه أن تكون ضعيفاً دون أن تُهان.
 ولا يعني ذلك غياب الخلاف؛ فالبيوت لا تخلو من اختلاف الطباع والمواقف.
 وإنما الفرق بين بيت وآخر هو الطريقة التي يُدار بها الخلاف. في بيت التقوى يناقش الفعل وتبقى الكرامة مصونة، وفي بيت الهوى يتحول الخطأ إلى ذريعة لتحقير الإنسان كله.

ومن استطاع أن يكون عادلاً داخل بيته، حيث تتداخل العاطفة بالمصلحة والغضب بالقدر، فقد قطع شوطاً عظيماً نحو الإنسان المؤتمن.

الفصل الرابع

مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ إِلَى عَدَالَةِ الْمُجْتَمَعِ

حِينَ يَخْرُجُ التَّوْحِيدُ مِنَ الْقَلْبِ لِيَصِيرَ رَحْمَةً وَطَهَارَةً وَمَوْقِفًا

بعد أن بنت السورة البيت على الميثاق، تتسع الدائرة من الأسرة إلى المجتمع كله. لكنها لا تبدأ العلاقات الاجتماعية من قواعد السلوك المجردة، بل من التوحيد؛ لأن الإنسان لا يستقيم مع الخلق تمامًا حتى يستقيم مقامه مع الخالق.

فالذي يعبد الله وحده يتحرر من عبودية المال والنسب والقوة وصورة الذات. وحين يسقط البشر من مقام الألوهية في قلبه، يستطيع أن يعاملهم باعتبارهم عبادًا لله، لا أدوات لمصلحته.

لهذا تبدأ الآيات بالأمر بعبادة الله، ثم تمتد مباشرة إلى الوالدين واليتامى والمساكين والجيران. وكأن التوحيد الصادق لا يبقى معنىً معلقًا في الضمير، بل يتحول إلى أمان يشعر به كل من يقترب من صاحبه.

الآية ٣٦

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

تبدأ الآية بحق الله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

وجاءت كلمة (شَيْئًا) نكرةً في سياق النهي، لتغلق كل منفذ إلى الشرك؛ فلا يُجعل مع الله ند في عبادة، ولا دعاء، ولا توكل، ولا خوف تعبدى، ولا حق من حقوق الألوهية.

التوحيد تحرير للإنسان؛ لأنه يخرج من الخضوع المطلق لكل ما سوى الله. لا يعود المال إلهاً، ولا الحاكم رباً، ولا الجماعة معصومةً، ولا الهوى صاحب الكلمة الأخيرة.

ثم تتدفق الحقوق بعد التوحيد: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا).

لم تقل: عدلاً فقط؛ فالوالدان لا يكفيهما أداء الحق الجاف. لهما مقام الإحسان الذي يتجاوز الحساب، لأنهما أعطيا الإنسان قبل أن يملك القدرة على الرد.

ومن الوالدين تمتد الدائرة إلى ذي القربى، ثم اليتامى والمساكين، ثم الجيران. وميّزت الآية بين الجار القريب والجار البعيد، حتى لا تصبح القرابة شرطاً لحسن الجوار.

فالجار له حق صنعه القرب المكاني، ولو لم يجمعك به نسب أو مصلحة. إن وجوده بجانبك أمانة؛ يسمع أصوات بيتك، ويرى ما يخفى على البعيد، وقد يحتاج إليك قبل أن يصل إليه أقرباؤه.

ثم ذكرت: (وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ).

فتشمل كل من جمعك به طريق أو عمل أو مجلس أو صحبة. قد تكون العلاقة قصيرة، لكن قصرها لا يبيح سوء الخلق. كل من جاورك لحظة له نصيب من أدبك.

ثم ابن السبيل الذي انقطع عن أرضه وأهله، ومن تحت اليد من الممالك في واقع الرق القديم؛ فقد جعلت السورة قرب الضعفاء من قدرتك سبباً لحفظهم، لا لاستباحتهم.

وتختم الآية بزم الاختيال والفخر؛ لأن المتكبر يعجز عن الإحسان. يرى نفسه أكبر من الوالد المحتاج، والفقير المنكسر، والجار البسيط، ومن يعمل تحت يده.

الكبر ليس شعوراً داخلياً فحسب؛ إنه خلل اجتماعي يجعل الإنسان يحجب المعروف عن يراهم أدنى منه.

الآية ٣٧

﴿الَّذِينَ يَخُلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

لا يكتفي البخيل بأن يخلق يده، بل قد يريد أن تتحول قسوته إلى ثقافة: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

فالإنسان يحب أن يرى عيبه منتشرًا؛ لأن شيوع الخطأ يخفف في نفسه شعور الخجل منه. إذا بخل، صوّر الكرم سذاجةً، والعطاء تبذيرًا، ومساعدة المحتاج إفسادًا له.

ثم قالت: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

قد يكون المكتوم مالا، أو علما، أو شهادةً، أو قدرةً على النفع. والفضل إذا حُبس عن وظيفته تحول من نعمة إلى حجة على صاحبه.

إن ما في يدك لم يُعط لك وحدك بالضرورة؛ قد يكون في رزقك رزق لغيرك، وفي علمك جواب لحائر، وفي موقعك باب نجاة لمظلوم.

والبخل ليس حفظ المال فحسب، بل حبس النعمة عن المعنى الذي خلقت له.

الآية ٣٨

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

في الآية السابقة يد مغلقة بالبخل، وفي هذه الآية يد مفتوحة لكن قلبها مغلق عن الله. فالإنفاق وحده لا يكشف طهارة الباطن؛ قد يعطي الإنسان ليشترى مكانةً في أعين الناس.

﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾.

المرائي لا يرى المحتاج في عطائه بقدر ما يرى صورته منعكسة في عيون الجمهور. يصبح الفقير خلفية لمشهد الكرم، وتتحول حاجته إلى منصة يصعد عليها المانح.

وقد يصل المال إلى المحتاج فتنجح منفعة دنيوية، لكن صاحبه يفقد روح العبادة؛ لأنه أراد بعمله نظر البشر لا رضا الله.

ثم تكشف الآية الجذر: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فلو امتلأ القلب بعلم الله، لما احتاج إلى جمهور يثبت له قيمة عمله. ولو استحضر الآخرة، لما باع أجرًا باقياً بثناء ينتهي بانتهاء المجلس.

ومن جعل الشيطان قريباً، زين له أن يعيش خارج نفسه؛ يراقب كيف يبدو، وينسى من يكون.

الآية ٣٩

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩].

ما الذي يخسره الإنسان لو آمن وأخلص وأنفق؟

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾.

سؤال يكشف غرابة اختيارهم. فهم يهربون من الإيمان كأنه سلب، مع أنه يحررهم من عبودية الجمهور. ويقبضون أيديهم كأن الإنفاق يفني رزقهم، مع أن المال مال الله، وهم مستخلفون فيه.

قالت الآية: ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.

لم تطلب منهم أن يخلقوا العطاء من العدم؛ إنما أن يخرجوا بعض ما وصل إليهم أصلاً من فضل الله.

ثم تختتم: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

يعلم المنفق حين يخفي صدقته، كما يعلم المرائي حين يرفع صوته بها. فلا يحتاج المخلص إلى أن يثبت عمله للناس؛ يكفيه أن الله به عليم.

الآية ٤٠

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

بعد التحذير من البخل والرياء، تضع الآية أمام الإنسان ميزان الله: ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

لا يضيع أصغر عمل، ولا يُحمّل إنسان ذنب غيره، ولا تُنقص حسنة لأنه لم يصفق لها الناس. إن ميزان الله أدق من أن تضيع فيه الذرة، وأعدل من أن تزيد فيه السيئة.

لكن العدل الإلهي لا يقف عند المماثلة في الحسنات: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾.

السيئة لا يُزاد عليها، أما الحسنة فتدخل في فضل الله فتضاعف. وفي هذا يظهر الفرق بين عدل يمنع الظلم، وفضل يتجاوز الاستحقاق.

قد تكون الحسنة صغيرةً في عين صاحبها: كلمة ترفع خاطراً، أو درهماً أخفاه، أو ظلماً قدر عليه ثم تركه. لكنها تقع في علم الله، فيضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

ما أضيق عين الإنسان حين تقيس العمل بحجمه الظاهر، وما أوسع فضل الله حين يقيسه بصدق القلب!

الآية ٤١

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

ينتقل المشهد فجأة من الذرة الخفية إلى اجتماع الأمم.

كل أمة تحضر، ومعها رسولها شاهداً بأنه بلغها رسالة الله، ويأتي محمد ﷺ شهيداً على أمته.

﴿فَكَيْفَ﴾.

كلمة تترك الجواب للخيال المرتجف. كيف يكون حال من كذب أو نافق أو ظلم، حين لا يعود التاريخ روايات متنازعة، بل شهادة تقام أمام الله؟

وشهادة الرسول ﷺ ليست معرفةً مستقلةً بالغيب، وإنما بما أعلمه الله وبما ظهر من استجابة أمته لرسالته على الوجه الذي يريده سبحانه.

إن من يزعم اتباع النبي سيقف يوماً تحت شهادته. وهناك لا تنفع كثرة الصلاة عليه باللسان إذا كانت الحياة قد ناقضت هديه في الأمانة والعدل.

محبة الرسول رجاء لصحبته، لكنها كذلك مسؤولية أمام شهادته.

الآية ٤٢

(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) [النساء: ٤٢].

حين تقوم الشهادة، يتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول أن تُطبق عليهم الأرض أو يصيروا ترابًا، هربًا من مواجهة الحقيقة.

في الدنيا كان الإنسان يحاول أن يرفع نفسه فوق الأرض: يبني اسمه، ويطلب علوه، ويهرب من صورة الضعف. وفي الآخرة يتمنى أن تسوى به الأرض، فلا يبقى له ظهور ولا صوت.

(وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا).

تنتهي قدرة اللغة على الخداع. لا مجال لرواية مصنوعة، ولا لحذف الوثائق، ولا لتوجيه الشهود. تظهر الحقيقة كاملة، وتشهد الجوارح بما وقع.

الكلمة التي أخفاها الإنسان عن المحكمة الأرضية لا تختفي عن يوم الشهادة، والحديث الذي بيّته في الليل يجد نفسه معلناً في كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً.

الآية ٤٣

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا) [النساء: ٤٣].

تدخل السورة إلى الصلاة؛ إلى اللحظة التي يقف فيها الإنسان بين يدي ربه.

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ).

كان هذا من مراحل تحريم الخمر؛ ضيّقت مساحتها أولاً بحرمان الشارب منها عند أوقات الصلاة، حتى نزل التحريم القاطع في سورة المائدة.

والغاية الظاهرة هنا أن يدخل المؤمن الصلاة وهو حاضر العقل، يعلم ما ينجي به ربه. فالعبادة ليست حركات جسد منفصلة عن الوعي.

وكم من مصلٍّ ليس بسكران الخمر، لكنه سكران الغفلة؛ ينطق الكلمات ولا يدري أين سار قلبه. لا يأخذ حكم السكران، لكن الآية توقظه إلى روح الصلاة: أن تعلم ما تقول.

ثم تأمر بالطهارة من الجنابة، وتفتح عند المرض والسفر وفقد الماء باب التيمم: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

فالصلاة لا تسقط، لكن الوسيلة تتخفف. حين يتعذر الماء تقوم الأرض الطيبة مقامه في الطهارة الحكيمة. وكأن الأرض التي خُلق منها الجسد تعينه على أن يقف طاهرًا بين يدي خالقه.

إن التشريع لا يريد تعذيب الإنسان بالماء عند المرض، ولا حبسه عن الصلاة حين يفقده. المقصد أن تبقى الصلة قائمة مع مراعاة الضعف: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾.

فالطهارة نفسها موضوعة داخل رحمة الله، لا خارجها.

الآية ٤٤

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

لم تقل الآية إنهم حُرّموا الكتاب كله، بل: ﴿أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾.

كانت عندهم معرفة من الوحي، لكن المعرفة لم تتحول إلى هداية. بل اشتروا الضلالة، وكأنهم دفعوا ثمنًا ليخسروا ما كان يمكن أن ينقذهم.

﴿يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ﴾.

الإنسان لا يقع دائماً في الضلال جاهلاً؛ قد يختاره لأن الحق يهدد مصلحته أو مكانته. يعرف الطريق، لكنه يشتري غيره بما يملك من علم.

وهذا أشد خطراً من الجهل؛ فالجاهل يحتاج إلى نور، أما من عرف ثم باع معرفته فيحتاج إلى تحرير قلبه من الثمن الذي قبضه.

ثم لا يكتفون بضلالهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾.

فالانحراف حين يستقر في النفس يحب أن يصنع حوله مجتمعاً يشبهه، حتى لا يبقى الحق شاهداً على قبحه.

الآية ٤٥

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

قد يخطئ الإنسان في تقدير العدو والصديق؛ يخدعه لين القول، أو يستفزه اختلاف ظاهر، أو يحكم بما يصل إلى عينه من أجزاء الصورة.

أما الله فأعلم بالأعداء؛ يعلم ما تخفي الصدور، وما تُعدّه المجالس المغلقة، وما وراء الكلمات من مقاصد.

ثم ترد الآية قلب المؤمن إلى مصدر الأمان: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

الولاية حماية وقرب وتدبير، والنصرة دفع للعدوان وتأييد للحق. ومن كان الله وليه ونصيره لم يحتج إلى أن يبيع دينه ليحصل على حماية زائفة.

لا يعني ذلك ترك الأسباب أو الاستغناء عن تعاون المؤمنين، بل يعني ألا يتحول السبب إلى معبود في القلب. تؤخذ الوسائل، لكن الثقة الأخيرة تبقى بالله.

الآية ٤٦

(مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) [النساء: ٤٦].

التحريف ليس دائماً محو الكلمات؛ قد يكون نقلها عن مواضعها، أو استعمال الألفاظ ذات الوجهين للطعن والسخرية.

(لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ).

يبدو ظاهر العبارة محتملاً للخير، بينما تنثني بها الألسنة نحو معنى خبيث. وهنا يكشف القرآن أن الخيانة قد تسكن النبوة والطريقة، لا المفردة وحدها.

وقد كان يمكن أن يقولوا: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا).

لكنهم قالوا: (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا). وصل الصوت إلى الأذان، ولم يبلغ مقام التسليم في القلب.

السمع الذي لا يتبعه انقياد قد يزيد الحجة على صاحبه؛ لأنه عرف الطريق ثم أعلن عصيانه.

والآية لا تعمم هذا الوصف على كل يهودي في كل زمان، بل تتحدث عن طائفة مخصوصة قامت منها هذه الأفعال. والعدل القرآني يمنعنا أن نحول ذنب جماعة إلى تهمة أبدية لكل فرد ينتسب إليها.

الآية ٤٧

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) [النساء: ٤٧].

يدعوهم القرآن إلى الإيمان به لا بوصفه هادماً لأصل الوحي الذي معهم، بل: (مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ).

فالرسالات الصحيحة يصدق بعضها بعضاً؛ مصدرها واحد، ودعوتها إلى توحيد الله وطاعته متصلة.

لكن المعرفة السابقة تجعل المسؤولية أثقل. فمن كان في كتابه بشارات الحق ثم أعرض عنه، لم يكن إعراضه كإعراض من لم يعرف.

وجاء الوعيد بطمس الوجوه وردّها على أدبارها؛ صورةً حسيةً أو معنويةً للارتداد بعد البيان. فالوجه موضع الاتجاه والتمييز، فإذا طُمس ضاع الطريق، وصار من رفض التقدم إلى الحق مردوداً إلى الوراء.

(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا).

لا يمنعه معاند، ولا يبقى وعيده كلمةً بلا نفاذ. وما دام الأمر مفعولاً، فالحكمة أن يعود الإنسان قبل أن يصبح الإعراض مصيراً.

الآية ٤٨

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا) [النساء: ٤٨].

هذه الآية فيمن لقي الله مصرّاً على الشرك دون توبة؛ أما من تاب قبل الموت، فإن التوبة تجب ما قبلها، وباب المغفرة مفتوح له.

لماذا كان الشرك أعظم الذنوب؟

لأنه اعتداء على أصل الحقيقة: أن الله وحده الخالق المالك المستحق للعبادة. يمنح المشرك المخلوق حقاً لا يملكه، ويسوي بين الفقير المحتاج والغني الكامل سبحانه.

(فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا).

الافتراء اختلاق للكذب؛ والمشرك لا يملك برهاناً على أن الله جعل له شريكاً. إنه ينشئ في تصويره دعوى لا أصل لها، ثم يبني عليها عبادته وحياته.

أما ما دون الشرك فهو تحت مشيئة الله: إن شاء غفر وإن شاء عاقب بعدله، ولا يخلد موحد في النار خلود الكافرين.

وفي الآية توازن بين تعظيم التوحيد وفتح الرجاء؛ فلا يؤمن المؤمن نفسه من الذنب، ولا يقنط من رحمة الله.

الآية ٤٩

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾
[النساء: ٤٩].

تزكية النفس ادعاء للطهارة والفضل، وقد يكون أخطر من الذنب نفسه؛ لأن المذنب الذي يرى جرحه قد يطلب العلاج، أما من يظن نفسه مكتملاً فلا يرى سبباً للتوبة.

﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾.

الطهارة الحقيقية ليست لقباً يمنحه الإنسان لنفسه، ولا شهادة تتبادلها الجماعات فيما بينها. الله أعلم بمن اتقى، وهو الذي يعلم باطن العمل ومقدار الصدق فيه.

وقد يزكي الإنسان نفسه بتزكية الجماعة التي ينتمي إليها؛ فيرى أن اسمها يمنحه براءة سابقة على العمل. لكن الانتساب لا يحمل صاحبه فوق الميزان. ثم تقول: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

الفتيل شيء دقيق في شق نواة التمر، وضرب به المثل في القلة. فلا يحرمهم الله قدرًا يسيرًا من حقهم، وإنما يرد دعواهم إلى الحقيقة.

من خاف أن يظلمه الله لم يعرف ربه؛ فالخطر ليس في الميزان الإلهي، بل في الأوهام التي نصنعها عن أنفسنا.

الآية ٥٠

(انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا) [النساء: ٥٠].

تطلب الآية من النبي ﷺ ومن يتلو القرآن أن ينظر إلى صناعة الكذب على الله. فهو ليس خطأ عابراً، بل جريمة تضيف إلى الله حكماً لم يقله، أو تنسب إليه تزكية لم يمنحها.

وقد يكذب الإنسان لمصلحة عاجلة، لكن الكذب على الله يجعل المصلحة البشرية ترتدي ثياب المقدس. وهنا يصبح الاعتراض على الهوى كأنه اعتراض على الدين.

(وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا).

لا يحتاج إلى جرائم أخرى ليظهر قبحه؛ يكفي أن يُنسب إلى الله ما لم يقله. ولهذا كان القول على الله بلا علم من أخطر مسالك الدين؛ لأن صاحبه لا يضل نفسه وحدها، بل يضع كذبه في طريق من يثقون باسم الوحي.

الآية ٥١

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَاتٍ مِّنَ الْكِتَابِ قَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ مَا كُنَّا بِهِيَ عَاكِفِينَ [النساء: ٥١].

كان لديهم نصيب من الكتاب، لكن الخصومة حملتهم على تركية طريق
يعرفون بطلانه، وتفضيله على طريق المؤمنين.

وهنا يظهر كيف يمكن للبغض أن يفسد ميزان المعرفة. قد يعرف الإنسان
الحق في خصمه، لكنه يرفض الاعتراف به لأن الاعتراف يمنحه فضلاً.

(يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ).

كل باطل وعبادة أو تحاكم يتجاوز به المخلوق حدّه يدخل في معاني الجبت
والطاغوت. والمفارقة أن أهل كتاب كان ينبغي أن يكونوا أبعد الناس عن ذلك
صاروا يزكونه تحت ضغط العداوة.

إن الخصومة التي تدفعك إلى مدح باطل خصم خصمك قد نقلتك من موقف
الحق إلى خدمة الطاغوت.

فالعدل لا يسمح للمؤمن أن يقول عن الباطل إنه أهدى لمجرد أنه يقف في
صفه السياسي أو يوافق مصلحته.

الآية ٥٢

(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا) [النساء: ٥٢].

اللعنة إبعاد عن رحمة الله، ولا يكون بعدها نصير يستطيع أن يعيد من أبعد الله.

كانوا يبحثون عن النصرة في التحالف مع الباطل، فجاءت العقوبة: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

من طلب القوة بمعصية الله قد يحصل على قوة مؤقتة، لكنه يفقد النصرة في الموضع الذي لا يغني عنه فيه أحد.

والآية لا تمنح البشر حق تعيين مصائر الأفراد بأهوائهم؛ إنما تخبر عن حكم الله فيمن ثبتت فيه هذه الصفات ومات عليها. فاللعن حكم شرعي لا أداة للغضب الشخصي.

الآية ٥٣

(أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا) [النساء: ٥٣].

تكشف الآية شحاً لو وصل إلى السلطة لحرم الناس أدنى الحقوق.

(نَقِيرًا).

والنقير نقرة صغيرة في نواة التمر، يضرب بها المثل في القلة. أي لو صار الملك بأيديهم، لما أعطوا الناس هذا المقدار اليسير.

ليست كل نفس صالحة للسلطة. فقد يكون الإنسان بخيلاً وهو فرد، فلا يتجاوز أذاه ماله، فإذا ملك القرار تحوّل بخله إلى سياسة تحرم مجتمعاً كاملاً.

الملك يوسع صفات صاحبه؛ إن كان رحيماً امتدت رحمته، وإن كان شحيحاً صار شحه نظاماً.

ولهذا كانت الأمانة قبل الولاية؛ لأن الكرسي لا يصلح القلب، بل يمنحه أدوات أوسع ليظهر ما فيه.

الآية ٥٤

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) [النساء: ٥٤].

الحسد اعتراض خفي على وجهة النعمة. لا يكتفي الحاسد بأنه حُرْم، بل يضيق لأن غيره أُعطي.

وكان الحسد هنا على ما أتى الله نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين من فضله. فكأن المشكلة ليست غياب الدليل، بل أن الفضل جاء إلى الجهة التي لم يردّها الحاسد.

فتذكرهم الآية بأن النبوة والكتاب والملك جرت في آل إبراهيم، فلا غرابة أن يمنح الله من يشاء من ذريته فضله.

الحسد يعمي صاحبه عن اتساق التاريخ؛ يرى النعمة الجديدة اعتداءً عليه، وينسى أنه طالما تفاخر بنعم مشابهة حين كانت في قومه.

ومن عرف أن الفضل لله، لم يعترض على الجهة التي يضعه فيها. فالنعمة ليست ملكًا لجماعة تحتكرها، والنبوة ليست منصبًا وراثيًا يوزعه البشر.

الآية ٥٥

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥].

أمام الحق ينقسم الناس: منهم من آمن، ومنهم من صدّ عنه، وربما صدّ غيره كذلك.

إن وحدة البيئة والمعرفة لا تنتج بالضرورة وحدة الموقف. قد يسمع اثنان البرهان نفسه، فيفتح أحدهما قلبه ويغلق الآخر؛ لأن المشكلة ليست في وضوح النور دائمًا، بل في النافذة التي تستقبله.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾.

الصدود حركة إرادية؛ رأى الطريق ثم انحرف، وربما وقف على بابه يمنع الآخرين من عبوره.

ثم تأتي النهاية: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

من صدّ عن نور الله اختار طريقًا ينتهي إلى السعير، ولو بدا له في الدنيا أنه يحمي مكانته أو انتسابه.

الآية ٥٦

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

إنه مشهد ترتعد له النفس: جلد ينضج من شدة النار، ثم يُبدل ليبقى الإحساس بالعذاب.

﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

الذوق إحساس مباشر لا يبقى معه العذاب خبرًا بعيدًا. أولئك الذين تعاملوا مع آيات الله كأنها كلمات بلا عاقبة، يجدون الحقيقة وقد صارت واقعًا لا يستطيعون الخروج منه.

ولا يُسأل الله عن فعله، وهو سبحانه لا يظلم أحدًا؛ فقد سبقت آية الميزان: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

وجاءت خاتمة هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

عزیز لا يمتنع عليه إنفاذ حكمه، حكيم يضع العقوبة في موضعها ولا يعاقب أحدًا بغير استحقاق.

فالقدرة الإلهية ليست منفصلةً عن الحكمة، والحكمة ليست عجزًا عن إنفاذ العدل.

الآية ٥٧

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا) [النساء: ٥٧].

في مقابل النار التي تجدد الألم، تأتي الجنة التي لا ينقطع نعيمها.

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا).

ليس نعيمًا يخالطه خوف الزوال؛ فالأبد جزء من النعمة. إن كثيرًا من لذات الدنيا يفسدها علمنا بأنها ستنتهي، أما الجنة فلا يمر فيها الزمن حاملاً تهديد الفقد.

(لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ).

طُهِرَتْ من أذى الأجساد وأمراض القلوب ومنغصات العلاقات. فالزواج الذي عرف في الدنيا نقص البشر يدخل الجنة وقد زالت منه أسباب الألم.

ثم تأتي الصورة الندية: (وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا).

ليس مجرد ظل، بل ظل كثيف ممتد كامل الراحة. وبعد صورة الجلود التي تنضج في النار، يأتي الظل ليغمر الجسد والروح بالأمان.

إنها مقابلة بين مصيرين: نار تكشف عاقبة الكفر، وظل ظليل يكشف عاقبة الإيمان والعمل الصالح. والإنسان هو الذي يختار في الدنيا الطريق، قبل أن يرى النهاية في الآخرة.

خاتمة الفصل

العبادة التي يعرفها الجار

بدأ الفصل بقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾،

وانتهى بالجنة والظل الظليل. وبين البداية والنهاية مرّت العبادة على الوالدين واليتامى والمساكين والجيران، وعلى المال والإنفاق والصلاة والطهارة، وعلى العلم حين يُحرف، والنفوس حين تزكي ذاتها، والقلب حين يحسد، واللسان حين يفتری على الله.

وهكذا تكشف السورة أن العبادة ليست حركةً معزولةً بين العبد وربّه، بل مركز يخرج منه السلوك كله.

من وحّد الله لم يحتقر عباده.

ومن آمن بعدله لم يأكل حقوقهم.

ومن استحضر علمه لم يحتج إلى الرياء.

ومن صدق بالآخرة لم يبيع الحق بثناء عاجل.

ومن علم أن الحسنة لا تضيع لم ييخل بها وإن لم يرها الناس.

إن الجار قد لا يسمع تلاوتك، لكنه يرى أثرها في خلقك. والفقير قد لا يعرف مقدار علمك، لكنه يعرف هل أغلقت يدك في وجهه. ومن تحت سلطتك لا يحتاج إلى خطبة عن التقوى بقدر ما يحتاج إلى أن يكون آمناً من ظلمك.

ثم كشفت الآيات أن امتلاك الكتاب لا يكفي إذا تحول العلم إلى وسيلة تحريف أو تزكية للنفس. فقد يحمل الإنسان نصًّا من الوحي، ثم يقف مع الجبت والطاغوت حين توافقه المصلحة.

المعرفة لا تنجي صاحبها حتى يسجد بها للحق.

الفصل الخامس

أَدُّوا الْأَمَانَاتِ

مِنْ عَدَالَةِ الْحُكْمِ إِلَى تَسْلِيمِ الْقُلُوبِ

بعد أن بنت السورة ضمير الفرد، وأقامت البيت على المعروف، وربطت عبادة الله بالإحسان إلى خلقه، تنتقل إلى المجال الذي تتسع فيه آثار الأمانة: مجال الحكم والسلطة والمرجعية.

فاليد التي أوتمنت على مال اليتيم قد تُسَلَّم إليها غداً خزائن الأمة، والإنسان الذي اخْتَبِر في الصداق والميراث قد يُخْتَبَر في منصب تتعلق به حقوق الآلاف.

ولا يخلق المنصب معدناً أخلاقياً جديداً، بل يكشف المعدن القديم ويوسع أثره. فما كان طمعاً محدوداً في الإنسان العادي قد يصبح فساداً عاماً حين يملك القرار، وما كان عدلاً في نطاق البيت قد يتحول إلى أمان لأمة إذا اتسعت مسؤوليته.

الآية ٥٨

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء: ٥٨].

تختصر الآية فلسفة الحكم في ركنين:

الأمانة والعدل.

الأمانة قبل الوصول إلى القرار، والعدل عند ممارسته. الأمانة تضع الشيء في يد مستحقه، والعدل يمنع هذه اليد بعد تمكينها من أن تتحرف. فإذا فُقدت الأولى وصل غير المؤهل، وإذا فُقدت الثانية جار صاحب السلطة حين قويت يده.

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ).

ليس أداء الأمانة خُلُقًا تكميليًا يختاره الإنسان حين يصفو مزاجه، بل أمر من الله. وهذا يجعلها عبادةً يخضع فيها صاحب المال أو المنصب لله.

والأمانة لا تقتصر على الودائع المادية. قد يُؤتمن الإنسان على سر، أو كلمة، أو علم، أو عقل طالب، أو صحة مريض، أو سمعة متهم، أو قرار يتعلق بمستقبل الناس.

كل موضع تستطيع فيه أن تنفع أو تضر هو مساحة أمانة.

ثم قالت: (إِلَى أَهْلِهَا).

لا يكفي أن تؤدي الأمانة؛ بل ينبغي أن تصل إلى أهلها. وإعطاء المنصب لغير أهله خيانة، ولو كان من أعطي قريبًا أو وفيًا للجماعة أو كثير المديح لصاحب القرار.

إذا قُدِّمَ القريب على الكفاء، أو صاحب الولاء على صاحب القدرة، لم يقع الظلم على مستحق المنصب وحده، بل على كل من ستتعلق مصالحهم بذلك المنصب.

فالخبرة بلا ضمير قد تجعل الخيانة أكثر احترافاً، والأمانة بلا قدرة قد تضيع المصالح بحسن نية. والمجتمع يحتاج إلى يد تعرف ما تفعل، وقلب يخاف الله فيما يفعل.

ثم يأتي الركن الثاني: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

قالت: ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾، لا بين الأحزاب والأتباع فقط. فالعدل لا يسأل أولاً عن هوية الخصمين، وإنما عن الحق بينهما.

وأصدق امتحان للحكم ما يفعله حين يكون الحق مع خصم ضعيف، والظلم صادرًا من قريب قوي. هناك يظهر هل الحاكم خادم للعدل أم مستخدم له.

لا يصبح القرار عادلاً لمجرد أن السلطة أصدرته؛ فالظلم يظل ظلمًا ولو كُتب على ورق رسمي، والحق يظل حقًا ولو حُرم صاحبه من الكلام.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

يسمع المظلوم حين لا يصل صوته إلى مجلس الحكم، ويرى ما يجري حين تُغلق الأبواب. قد تملك السلطة وسائل تشكيل الرواية التي يسمعها الناس، لكنها لا تحجب الحقيقة عن السميع البصير.

الآية ٥٩

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) [النساء: ٥٩].

يجيء الأمر بالطاعة بعد الأمر بالأمانة والعدل. وهذا الترتيب يمنع اقتطاع الطاعة من سياقها الأخلاقي؛ فالسلطة التي تطالب الناس بواجبهم مطالبة قبل ذلك بأداء أمانتها والعدل فيهم.

كررت الآية فعل الطاعة مع الله ورسوله: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ).

فطاعة الرسول ﷺ من صميم طاعة الله؛ لأنه المبلّغ عنه، والمبين لكتابه، وقد أمر الله باتباعه.

إن القرآن لم ينزل مجردًا من حياة تفسره، بل نزل على قلب رسول، وظهر معناه في قوله وعمله وإقراره. ومن يفصل القرآن عن بيان الرسول يعزل النص عن البيان الذي اختاره الله له.

ثم قالت: (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ).

ولم تكرر فعل (أَطِيعُوا) معهم؛ لأن طاعتهم تابعة لطاعة الله والرسول، وليست مطلقة. يُطاعون في المعروف وما يحقق انتظام الجماعة داخل حدود الشرع، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

فالسُّلْطَةُ مُحْتَرَمَةٌ، لَكِنِّهَا لَيْسَتْ مُقَدَّسَةٌ.
وَالطَّاعَةُ وَاجِبَةٌ فِي مَوْضِعِهَا، لَكِنِّهَا لَيْسَتْ عِبَادِيَّةً لِلْبَشَرِ.

ثُمَّ تَعْتَرِفُ الْآيَةُ بِإِمْكَانِ النِّزَاعِ: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

الْإِيمَانُ لَا يُلْغِي اخْتِلَافَ الْعُقُولِ وَالتَّقْدِيرَاتِ، لَكِنِّهُ يَمْنَحُ النَّاسَ مَرْجَعًا يَعُودُونَ إِلَيْهِ: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

الرَّدُّ إِلَى اللَّهِ رَدٌّ إِلَى كِتَابِهِ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ فِي حَيَاتِهِ إِلَيْهِ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ إِلَى سُنَّتِهِ الصَّحِيحَةِ. فَالرِّسَالَةُ لَمْ تَنْتَهَ بِوَفَاةِ حَامِلِهَا، وَهَدْيُهُ بَاقٍ حُجَّةً وَبَيَانًا.

وَلَا يَكُونُ الرَّدُّ إِلَى الْوَحْيِ بِأَنْ يَذْهَبَ الْإِنْسَانُ إِلَى النَّصِّ طَالِبًا عِبَارَةً تَثْبُتُ رَأْيُهُ السَّابِقَ، بَلْ بِأَنْ يَقِفَ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ يَتَغَيَّرَ. التَّجَرُّدُ الْحَقِيقِيُّ أَنْ تَمْنَحَ الدَّلِيلَ حَقَّ الْحُكْمِ عَلَيْكَ.

ثُمَّ تَرْبِطُ الْآيَةُ الْمَرْجِعِيَّةَ بِالْإِيمَانِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فَقَدْ يَخْسِرُ الْإِنْسَانُ بِالْحَقِّ مَنَفْعَةً عَاجِلَةً، وَلَا يَحْتَمِلُ تِلْكَ الْخَسَارَةَ إِلَّا قَلْبٌ يَعْلَمُ أَنَّ وَرَاءَ الدُّنْيَا مِيزَانًا آخَرَ.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

الْوَحْيُ يَرَى الطَّرِيقَ حَيْثُ تَرَى الشَّهْوَةَ الْخَطْوَةَ؛ قَدْ يَثْقُلُ حُكْمُهُ أَوَّلًا، ثُمَّ تَظْهَرُ بَرَكَتُهُ فِي الْمَالِ.

الآية ٦٠

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا) [النساء: ٦٠].

لم تقل الآية: آمنوا، بل: (يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا).

فالدعوى التي لا تصمد عند التحاكم تصبح زعمًا. كانوا يعلنون الإيمان بالوحي، لكنهم حين خافوا أن يأتي الحكم مخالفًا لمصالحهم بحثوا عن مرجعية تمنحهم النتيجة التي يريدون.

ليست مشكلتهم غياب الحكم، بل خشيتهم من الخضوع له.

والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده وجعل مرجعًا في مقابلة حكم الله؛ من صنم أو كاهن أو هوى أو سلطة بشرية تدعي حق التحليل والتحرير من دون الله.

ولا يبدأ الضلال البعيد دائمًا بإنكار الدين كله؛ قد يبدأ برفض حكم واحد لأن النفس لم تحبه. ثم تتعلم أن تختار مرجعيتها وفق النتيجة، فتبتعد خطوة بعد خطوة، حتى يبقى من الإيمان اسمه.

الذي لا يستدعي الوحي إلا ليبارك ما اختاره مسبقًا، جعل هواه أصلًا والوحي شاهداً يبحث عن توقيعه.

الآية ٦١

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) [النساء: ٦١].

(تَعَالَوْا).

الدعوة إلى الوحي ارتفاع؛ لأن الإنسان يصعد بها فوق ضغط الهوى والعادة والمصلحة. لكن المنافق يرى في هذا الارتفاع تهديداً للمكان الذي بنى فيه مكاسبه.

(يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا).

الصدود أبلغ من الانصراف؛ فيه إعراض متعمد، وربما صد للآخرين أيضاً. إنهم لا يعلنون رفض الوحي صراحةً، لكن حركتهم عند الدعوة إليه تكشف ما أخفته ألسنتهم.

قد يُقبل القرآن واعظاً يرقق القلب، ويُرفض حاكماً يعيد توزيع الحقوق. يُسمح له أن يتلى في المجالس، ولا يُسمح له أن يدخل إلى المال والسلطة والخصومة.

لكن الوحي الذي لا يحكم مواضع القوة يراد له أن يبقى صوتاً جميلاً بلا أثر.

الآية ٦٢

(فَكَيفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرْدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) [النساء: ٦٢].

حين تظهر عاقبة انحرافهم، يأتون بلغة المقاصد النبيلة: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

وهكذا يعمل التبرير؛ يغطي الطريق الفاسد باسم الغاية الجميلة. كم من ظلم سُمِّي مصلحة، وكم من خيانة قُدِّمَتْ بوصفها حكمة، وكم من تنازل عن الحق قيل إنه يحفظ الوحدة!

ليس كل من أعلن حسن القصد كان فعله حسناً؛ فالنية الصالحة لا تبيح الوسيلة المحرمة، والشعار الجميل لا يغير حقيقة الطريق.

والتوفيق الحق لا يعني مصالحة الحق مع الباطل على حساب الحق، ولا صناعة منطقة يرضى فيها الوحي أن يتخلى عن مرجعيته ليقبل به الطاغوت شريكاً.

الآية ٦٣

(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) [النساء: ٦٣].

الله يعلم ما في القلوب، أما البشر فيعاملون الناس بما ظهر منهم، ويطبقون عليهم الحجة بالكلمة التي تبلغ موضع الداء.

(قَوْلًا بَلِيغًا).

ليس كل كلام صحيح بالغاً. قد يكون صحيح المعنى لكنه بارد لا يصل، أو قاسياً يغلق القلب قبل أن يفهم، أو عامماً لا يلامس موضع الخل.

القول البليغ هو الذي يصل إلى النفس؛ يكشف حيلتها دون ضجيج، ويضعها أمام المسافة بين ما تدعيه وما تفعله.

والمجتمع لا يُشفى من النفاق بالفضح وحده؛ يحتاج إلى خطاب يعيد للضمير قدرته على رؤية نفسه. فقد يكرر الإنسان تبريره حتى يصدقه، ويحتاج إلى كلمة تمزق الستار الذي أقامه بينه وبين الحقيقة.

الآية ٦٤

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) [النساء: ٦٤].

الرسالة بطبيعتها تقتضي الطاعة: (إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ).

فلا يُرسل الرسول ليكون رمزًا تاريخيًا تُذكر شمائله ثم يُعزل هديه عن القرار، ولا ليحمل ألفاظًا يحق لكل إنسان أن يعيد تشكيلها وفق هواه.

محبة الرسول ليست عاطفةً تستغني عن الاتباع. قد يبكي الإنسان عند ذكره ﷺ، ثم يقدم على حكمه رأيًا يوافق مصلحته. والوفاء الحقيقي أن يكون هديه أحب إلى القلب من تبريره حين تتنازع السبل.

لكن الآية لا تغلق الباب في وجه من هرب من حكم الرسول: ﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾.

لقد ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا غيرهم؛ لأنهم أبعدوها عن باب الرحمة. ولو اعترفوا ورجعوا واستغفروا، واستغفر لهم الرسول في حياته، لوجدوا الله توابًا رحيمًا.

المرجعية لا تريد سحق المخطئ، بل رده. لكنها لا تستطيع علاجه ما دام يسمى انحرافه توفيقًا ويرفض الاعتراف بأن الخطأ وقع.

أول باب التوبة أن تسمي الجرح باسمه.

الآية ٦٥

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قسم بربوبية الله لنبيه ﷺ، ونفي للإيمان الواجب الكامل حتى تتحقق مراتب ثلاث: ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾: رجوع في السلوك.

﴿لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾: قبول في القلب.

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾: تمام الانقياد.

قد يقبل الإنسان الحكم ظاهرًا لأنه عاجز عن رده، بينما يبقى قلبه ممتلئًا بالاعتراض. لكن العبودية التي تريدها الآية أعمق من الانضباط الخارجي؛ إنها تريد للقلب أن يطمئن إلى عدل الله ورسوله، حتى حين لا يوافق الحكم رغبته.

ولا يعني انتفاء الحرج غياب المشقة الطبيعية. فقد يشق على النفس أن ترد مألًا أو تتنازل عن رأي أو تترك عادةً. المقصود ألا تعترض على أصل الحكم، وألا ترى هواها أعدل من الوحي.

قد يتألم المؤمن من التكليف، لكنه لا يتهم الحكمة.

وقد تثقل عليه الطاعة، لكنه يحمل ثقلها إلى الله لا بعيدًا عنه.

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

إنها اللحظة التي تتوقف فيها النفس عن المراوغة، وتضع أسلحتها أمام الحق. هنا تصل اللغة إلى مقام السجود أمام المعنى، ويعرف العقل أن من تمام حكمته أن يثق بمن هو أعلم منه.

الآية ٦٦

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا) [النساء: ٦٦].

تكشف الآية ضعف الإنسان أمام التكليف الكبرى. لو كتب عليهم ما كتب على بعض الأمم من قتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم، لما استجاب إلا قليل.

ليس المقصود وقوع هذا التكليف على أمة محمد ﷺ، بل كشف مقدار رحمة الله بها، وكشف أن الذين يعجزون عن التكليف الأخف كانوا أعجز عن الأشد.

ثم تأتي القاعدة:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا).

الموعظة التي لا تتحول إلى فعل قد تمنح الإنسان انفعلاً مؤقتاً، لكنها لا تغير طريقه. أما العمل فهو الذي يثبت المعنى في النفس.

نظن أحياناً أننا نحتاج إلى اليقين الكامل قبل الطاعة، بينما تكشف الآية أن الطاعة نفسها من أسباب التثبيت. حين يعمل الإنسان بما علم، يتجذر العلم في قلبه ويصير جزءاً من تكوينه.

العمل ليس ثمرة الإيمان وحده؛ إنه من أسباب نموه.

الآية ٦٧

(وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: ٦٧].

بعد الخير والتنبيه يأتي الأجر العظيم.

(مِّن لَّدُنَّا).

أي عطاء خاص من عند الله، لا تقيسه موازين البشر ولا تحده أعمالهم المحدودة. فالإنسان يعمل فعلاً صغيراً في زمن قصير، ويمنحه الله عليه أجراً عظيماً باقياً.

الطاعة قد تبدو في لحظتها فقداً؛ ترك شهوة، أو رد مال، أو التخلي عن رأي. لكنها تنتقل عند الله من صورة الفقد إلى خزائن الأجر.

ومن عرف الجهة التي يأتي منها الجزاء، لم يستصغر طاعة ولم يستكثر تضحيةً.

الآية ٦٨

(وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا) [النساء: ٦٨].

الهداية ليست معلومةً يتلقاها الإنسان مرةً ثم يستغني عن الله. إنها مدد متجدد، وكل طاعة تفتح باباً إلى هداية أخرى.

فمن عمل بالموعدة ثبتته الله، وآتاه الأجر، وزاده هدىً. وهكذا تصعد النفس: علم يقود إلى عمل، وعمل يقود إلى تثبيت، وتثبيت يفتح طريقاً أوسع من الهداية.

أما من يرفض أول خطوة، فقد يحرم نفسه نور الخطوات التالية.

والصراط مستقيم؛ لا يرهق السائر بتعدد الوجهات، لكنه يحتاج إلى قلب ثابت، لأن الأهواء تقيم على جانبيه طرقاً قصيرة تبدو مغريةً وتنتهي بعيداً.

الآية ٦٩

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

بعد مشقة التسليم تفتح الآية نافذةً على الرفقة.

من يطع الله والرسول لا يسير وحده، وإن بدا غريباً في عصره. إنه يلتحق بموكب طويل:

النبليون الذين حملوا الوحي.

والصديقون الذين بلغ تصديقهم مقاماً لم تزعزعه الشبهات.

والشهداء الذين بذلوا أرواحهم للحق.

والصالحون الذين استقامت سرائرهم وأعمالهم.

﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

ما أدفأ كلمة (رَفِيفًا) بعد صرامة التحاكم! فالطاعة ليست أوامر باردة، بل طريق إلى أجمل صحبة.

قد يفقد الإنسان رفقةً لأن الحق ثقل عليها، لكنه يُوعَد بصحبة لا تذبل. وحين يترك هوىً اتباعًا للرسول، لا يتركه إلى فراغ؛ إنما يتحرك نحو مجلس الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذه الرفقة لا تُشتري بالدعاوى، بل بالسير في طريقهم: صدق حين يغري الكذب، وثبات حين يشتد الخوف، وتسليم حين يثور نزاع النفس.

الآية ٧٠

(ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلِيمًا) [النساء: ٧٠].

لا يبلغ العبد هذه الرفقة بقوته وحدها، ولا يدخل الجنة لأن عمله يساوي نعيمها: (ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ).

الطاعة سبب، لكن التوفيق إليها فضل، والثبات عليها فضل، وقبولها فضل، والجزاء المضاعف عليها فضل.

وهذا يمنع المؤمن من العجب. فقد أطاع، لكنه لم يخلق في نفسه القدرة على الطاعة. ولو ترك إلى ضعفه لهزمت الشهوة والخوف.

ثم تقول: (وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلِيمًا).

يعلم صدق السائرين، ومقدار جهاد كل قلب، والعوائق التي قاومها، والدمعة التي لم يرها أحد، والخطوة التي بدت صغيرة للناس وكانت عظيمة على صاحبها.

قد تتشابه الأعمال في الظاهر، لكنها تختلف في علم الله باختلاف القلوب. ولذلك لا يملك البشر توزيع مقامات الصدق، ولا الحكم النهائي على السرائر. يكفي العبد أن يعلمه الله.

خاتمة الفصل

المرجعية التي تحرر الإنسان من نفسه

بدأ الفصل بأداء الأمانات، ثم انتقل إلى عدالة الحكم، وطاعة الله والرسول، ورد النزاع إلى الوحي، وانتهى برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وهذا البناء يكشف أن السلطة والمرجعية والطاعة ليست موضوعات سياسية منفصلة عن تركية القلب. فالإنسان لا يرفض حكم الحق دائماً لأنه لم يفهمه، بل قد يرفضه لأن داخله سلطة أخرى تريد أن تبقى حاكمة: سلطة الهوى.

والمؤمن لا يثبت إيمانه بمجرد أن يعلن مرجعية الوحي، بل حين يقبل حكمه في الموضع الذي يخالف مصلحته.

الأمانة تقول له: لا تضع المنصب إلا في يد أهله.

والعدل يقول: لا تنظر إلى اسم الخصمين.

والطاعة تقول: لا تجعل إرادتك فوق أمر الله.
والتحاكم يقول: لا تبحث عن مرجع يمنحك النتيجة التي تريدها.
والتسليم يقول: لا تبق في القلب تمرّدًا مستترًا بعد ظهور الحق.
وحين يحقق الإنسان ذلك، لا يخرج من ذاته إلى فراغ، بل يدخل في موكب
الذين أنعم الله عليهم.
إن الطريق يبدأ بأمانة قد يظنها الناس صغيرةً، وينتهي برفقة الأنبياء.
وبذلك اكتمل الفصل الخامس، مستوعبًا الآيات من ٥٨ إلى ٧٠ دون إسقاط.
وفي الفصل السادس نبدأ بالآية ٧١، حيث تدخل السورة إلى ميدان الخوف
والقتال، وتكشف الفارق بين من يحمل هم الرسالة ومن يراقبها من وراء
نافذة المصلحة.

الفصل السادس

الْمُنَافِقُونَ وَامْتِحَانُ الْقُوَّةِ

حِينَ تَكْشِفُ الشَّدَائِدُ مَا تُخْفِيهِ الْقُلُوبُ

بعد أن أقامت السورة مرجعية الوحي، وربطت الطاعة بالتسليم، تنتقل إلى الميدان الذي تُختبر فيه حقيقة الكلمات.

ففي زمن السعة يستطيع كثيرون أن يقولوا: سمعنا وأطعنا. لكن الشدة تضع كل كلمة أمام ثمنها، وتجرد الإنسان من الصورة التي صنعها لنفسه. هناك يظهر من يحمل هم الرسالة، ومن لا ينتمي إلا إلى سلامته الشخصية، ومن يقف في الصف بجسده بينما يراقب النتيجة بقلب التاجر.

وليست أخطر الأخطار هي التي تأتي معلنةً من خارج الأسوار؛ فالعدو الظاهر يستنفذ وعي الجماعة. أما النفاق فيلبس ثياب القرب، ويتكلم بمفردات الإيمان، ثم يتحرك وفق حساب آخر لا تحكمه الرسالة.

الآية ٧١

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

لا يناقض الإيمان الحذر، ولا يعني التوكل إهمال أسباب الحماية.

﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

الحذر هنا ليس خوفاً يشل الحركة، بل وعي يبصر الخطر ويستعد له. فالمؤمن لا ينام في طريق العدو ثم يسمي غفلته حسن ظن بالله.

التوكل امتلاء القلب بالاعتماد على الله بعد الأخذ بما أمر به من أسباب، لا إلقاء النفس في مواطن الهلاك ثم مطالبة القدر بإنقاذها.

ثم تترك الآية للقيادة تقدير صورة التحرك: (فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا).

(ثُبَاتٍ) أي جماعات متفرقة، أو ينفر الجيش مجتمعاً بحسب ما تقتضيه الحال. فالتنظيم جزء من التكليف، وليست الشجاعة اندفاعاً بلا تدبير.

قد يحتاج الموقف إلى مجموعات تؤدي مهام متعددة، وقد يحتاج إلى اجتماع القوة كلها. الثابت هو الغاية، أما الوسيلة فتتحرك بفقهاء الواقع.

الآية ٧٢

(وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا) [النساء: ٧٢].

ترسم الآية إنساناً يقف في الصف، لكنه يسحب قدميه إلى الخلف: (لَّيَبْطِئَنَّ).

لا يكتفي بأن يتأخر، بل قد ينقل بطأه إلى الآخرين؛ يضخم المخاطر، ويهون الغاية، ويصنع من الخوف حكمةً ومن الانسحاب بُعد نظر.

وليس كل تحذير تثبيطاً؛ فالآية السابقة أمرت بالحدز. لكن الحذر الصادق يحسن الاستعداد ثم يمضي، أما التثبيط فيجعل دراسة الخطر وسيلة دائمة لتترك الواجب.

فإذا أصابت المؤمنين مصيبة قال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

يعد سلامته الشخصية نعمة، ولو كان ثمنها خذلان الجماعة. لا يشعر بألمهم لأنه لم ينتم إلى المعنى الذي جمعهم، وإنما ظل واقفاً عند حافة الصف ينتظر المال.

وقد تكون السلامة نعمة في موضع، لكنها تتحول إلى خزي حين تُشترى بالتخلي عن الواجب.

الآية ٧٣

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فُتْرٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣].

إذا أصابت المؤمنين مصيبة فرح بسلامته، وإذا جاءهم الفضل تحسر على نصيبه الضائع.

﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾.

لم يقل: لأنصر الحق، بل: ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

إنه يريد ثمار التضحية دون أن يدخل نارها، ويريد مكانًا عند المائدة دون أن يحمل شيئًا من تعب الطريق.

والمؤلم قوله: (كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ).

كانت المودة تقتضي أن يفرح لفضل أصاب المؤمنين، لكنه لا يرى من النصر إلا حصته التي فاتته. فالمودة عنده ليست مشاركةً وجدانية، بل عقد منفعة.

إنه لا يقول: فازوا، بل: خسرت فرصة أن أفوز معهم. وهنا ينكشف قلب لا يعرف من الجماعة إلا ما يعود إليه منها.

الآية ٧٤

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: ٧٤].

تكشف الآية جوهر الامتحان: أي العالمين أثقل في القلب؟

(يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ).

أي يبيعون الدنيا طلبًا للآخرة، لا بمعنى إهمال الحياة وعمرانها، بل ألا يجعلوها الثمن الذي يبيعون من أجله دينهم.

المؤمن يحب الحياة، لكنه لا يعبدها. ويطلب السلامة، لكنه لا يشتريها بخيانة الحق. والآخرة لا تخرجه من الدنيا، بل تمنع الدنيا من أن تحتل مقام الإله في قلبه.

ثم تجعل الآية المآلين الدنيويين بابًا إلى أجر واحد: ﴿فَيُقْتَلُ أَوْ يَغْلِبُ﴾.

قد ينتصر في الميدان، وقد يُقتل، لكنه ما دام قاتل في سبيل الله فقد خرج من منطق الخسارة. الناس يقيسون النتيجة بما وقع على الأرض، أما الله فيزن صدق القصد وبذل الوسع.

ليس كل مقتول شهيدًا لمجرد موته في قتال؛ إنما الشأن في السبيل الذي قاتل فيه والغاية التي حملها. فالسلاح لا يظهر النية، والحماسة وحدها لا تجعل القضية حقًا.

الآية ٧٥

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

في مكان لا تصل منه الأصوات إلى مجالس القوة، يقف رجل عاجز عن حماية نفسه، وامرأة لا تملك طريقًا للخروج، وطفل ولد داخل الخوف قبل أن يعرف للحياة معنى آخر.

كل ما يملكونه دعاء:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾.

وتسمع سورة النساء الدعاء، ثم تنقله من تضرع المستضعفين إلى ضمير القادرين:

(وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ).

لا تسأل العاجز لماذا لم ينج بنفسه، وإنما تسأل من يملك القدرة: لماذا بقيت قوتك ساكنةً أمام هذا الألم؟

وهكذا تغيّر السورة معنى القوة. لم تعد امتيازًا يحرس صاحبه فحسب، بل أمانة تستدعيها صرخات من حُرِّموا منها.

وذكر الرجال والنساء والولدان يمنعنا من تحويل الحرب إلى مشهد بطولة مجرد. خلف الخرائط أطفال، وخلف بيانات النصر أمهات، وخلف كل قرار أرواح ترتجف.

والقتال هنا في سبيل الله ونصرة المستضعفين، لا للغنيمة أو العصبية أو توسيع نفوذ جماعة. فإذا تحولت معاناة الضعفاء إلى شعار تتاجر به القوى، فقد خُونت القضية وإن ظل اسمها مرفوعًا.

النصرة الصادقة لا تستبدل يدًا تستعبد المظلوم بيد جديدة، بل تعيد إليه حقه في الحياة والاختيار والكرامة.

الآية ٧٦

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) [النساء: ٧٦].

قد تتشابه الأسلحة، لكن السبل مختلفة. ليست قيمة القتال في الشجاعة وحدها، بل في الجهة التي تخدمها القوة.

سبيل الله يقيد القوة بالحق، وسبيل الطاغوت يجعلها خادمةً للتجاوز والاستعباد. وقد يبذل المقاتل في كلا الجانبين نفسه، لكن التضحية وحدها لا تجعل القضية عادلة؛ فقد يضحي الإنسان من أجل باطل آمن به.

ولهذا تحتاج الشجاعة إلى بصيرة، ويحتاج الحماس إلى هداية. فالشجاعة الأخلاقية ليست القدرة على مواجهة الموت فقط، بل التحقق من أن الدم لا يُبذل في خدمة هوى قائد أو عصبية جماعة.

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا).

قد يبدو الطاغوت ضخماً بما يملك من سلاح وإعلام، لكن ضعفه كامن في افتقاره إلى الحق. يحتاج كل يوم إلى مزيد من الكذب كي يغطي باطله.

وضعف كيد الشيطان لا يعني أن مقاومته بلا ألم، بل يعني أن بنيانه لا يملك قوة الحقيقة، وأن انتفاشه لا يغيّر هشاشة أصله.

الآية ٧٧

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) [النساء: ٧٧].

حين أمروا بكف اليد كان بعضهم يتطلع إلى القتال، فلما جاء التكليف الحقيقي وتحولت الحماسة إلى كلفة ظهر الخوف.

من السهل أن يكون الإنسان شجاعاً في خياله؛ يتصور المواقف ويرسم لنفسه بطولةً كاملةً ما دامت التضحية فكرة. فإذا اقترب الواجب من جسده وماله وأمنه عرف حقيقة ما في قلبه.

إن بعض الحماسة ليست استعداداً للعمل، بل هروب من عجز الحاضر إلى بطولة متخيلة في المستقبل.

ثم تكشف الآية موطن الخلل: (يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً).

الخوف الطبيعي لا يناقض الإيمان، لكن المشكلة أن يصبح الناس في القلب أكبر من أمر الله، وأن تتحول خشيتهم إلى مرجعية تمنع الطاعة.

ثم يقولون: (لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ).

إنها رغبة النفس القديمة في التأجيل. لا تقول: لن أطيع، بل تقول: ليس الآن. وقد يؤدي التأجيل وظيفه الرفض نفسها.

فترد الآية ميزان الحياة إلى موضعه: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ).

كل ما يخشى الإنسان فقدته سينتهي، والآخرة خير لمن اتقى، ولا يُنقص أحد من عمله مقدار الفتيل.

الآية ٧٨

(أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) [النساء: ٧٨].

يحاول الإنسان الهرب من التكليف خوفاً من الموت، فتخبره الآية أن الموت لا يحتاج إلى ميدان كي يصل إليه: (وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ).

ليس المطلوب أن يطلب المؤمن الموت، بل ألا يبيع الحق طلباً لسلامة لا يملك ضمانها. إذا كانت النهاية آتيةً في كل حال، فالسؤال الأهم ليس: كيف أمنع الموت؟ بل: على أي معنى أعيش حتى يأتي؟

ثم تكشف الآية اضطراب المنافقين في تفسير الأحداث. إذا جاءت الحسنة نسبوها إلى الله، وإذا وقعت الشدة اتهموا الرسول ﷺ بالتشاؤم وسوء التدبير.

إنهم يريدون قيادةً تتحمل النتائج السيئة، بينما يحتفظون لأنفسهم بنصيب الفضل عند النجاح.

فترد الآية: (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

كل ما يقع فهو داخل علم الله ومشيئته وقدره، لا يخرج شيء عن سلطانه. وهذا لا يلغي مسؤولية البشر، كما ستوضح الآية التالية.

ثم تعجب من قوم لا يكادون يفقهون حديثاً؛ لأنهم يفصلون بين القدر والمسؤولية، أو يستعملون الأحداث لتوجيه الاتهام حيث يريد الهوى.

الآية ٧٩

(مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ
لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) [النساء: ٧٩].

كل شيء واقع بقدر الله، لكن الحسنة فضل منه، والسيئة التي تصيب العبد قد
تكون بسبب ذنبه أو تقصيره.

فلا تناقض بين الآيتين: الأولى تقرر شمول القدر، والثانية تقرر مسؤولية
الإنسان عن أسباب الشر التي صنعها.

الإيمان بالقدر لا يمحو المحاسبة، ومحاسبة النفس لا تخرج شيئاً من ملك الله.

وكل محاولة لاستعمال القدر غطاءً للفشل الأخلاقي هي هروب من
المسؤولية. لا يصح للإنسان أن يظلم ثم يقول: هذا قدر الله؛ فالقدر سر الله في
خلقه، أما فعلك فقد وقع باختيارك الذي ستحاسب عليه.

ثم تثبت الآية رسالة محمد ﷺ للناس: (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا).

لم يُرسل إلى قبيلة أو قوم وحدهم، بل إلى الناس. ورسالة تتسع للإنسانية لا
يجوز أن تختزل في عصبية تضيق عن العدل مع المخالف.

الآية ٨٠

(مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا) [النساء: ٨٠].

تحسم الآية العلاقة بين طاعة الله وطاعة رسوله: (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ).

لا لأن الرسول ﷺ شريك لله في الألوهية أو التشريع من عند نفسه، حاشاه، بل لأن الله أرسله وأمر بطاعته، وهو مبلغ عنه ومبين لوحيه.

فالسنة الصحيحة حجة في الدين، ولا معنى للأمر بطاعة الرسول إذا جاز لكل إنسان أن يرد بيانه الثابت متى خالف هواه.

ثم تضع الآية حدًا لوظيفة الرسول: (فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا).

عليه البلاغ والبيان، وليس عليه أن يفتح القلوب قسرًا. فالإيمان لا يولد تحت الإكراه، والطاعة الحقيقية لا يصنعها السوط؛ لأنها في أصلها تسليم القلب لله.

الآية ٨١

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) [النساء: ٨١].

في المجلس يقولون: (طَاعَةٌ).

وحين يخرجون يبدأ إعداد موقف آخر. ثمة خطاب للعلن وخطاب للغرف المغلقة، ووجه يقابل الرسول ووجه يقابل المصلحة. (بَيَّتَ).

توحي بعمل يجري في الليل، حيث تهدأ العيون وتتحرك النيات المستترة. لكن الله يكتب ما يبيتون؛ فالسر الذي لم يسمعه الناس صار سطرًا في سجل لا يضيع.

النفاق يحتاج دائمًا إلى لغتين، ولذلك يستهلك صاحبه. عليه أن يتذكر ماذا قال لكل فريق، وأي وجه أظهر في كل مجلس، ويظل خائفًا من اللحظة التي يلتقي فيها الوجهان.

أما الصدق فيريح الإنسان من إدارة الأقنعة. قد يدفع ثمن موقفه، لكنه يعيش بقلب واحد.

ثم يؤمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم والتوكل على الله؛ فلا تستنزفه مؤامراتهم، ولا يظن أن حفظ الرسالة متوقف على قدرته وحدها: (وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا).

الآية ٨٢

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا).
[النساء: ٨٢].

بعد الحديث عن التناقض بين قول المنافقين في العلن وتبويتهم في الخفاء، تدعوهم الآية إلى تدبر كتاب لا تتناقض أصوله.

كان القرآن يقابل وحدته بتشظيهم: كلامهم يتغير لأن مصادره أهواؤهم المتعددة، أما الوحي فمصدره واحد، ولذلك تتعانق معانيه ولا يهدم بعضها بعضاً.

والتدبر نظر في أعقاب الكلام وروابطه ومآلاته، لا مرور سريع على ألفاظه. إنه محاولة رؤية الآية في موضعها من السورة، ورؤية السورة في بنية القرآن، ورؤية الخطاب وهو يبيّن الإنسان والحياة.

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ).

كتاب نزل منجماً خلال أعوام، وعالج أحداثاً متبدلةً، وتناول العقيدة والتشريع والأخلاق والتاريخ، ثم ظل بناؤه متسقاً؛ يصدق أوله آخره، ويرد متشابهه إلى محكمه.

لا يعني انتفاء الاختلاف عدم تنوع الأحكام والسياقات، بل عدم التناقض الحقيقي الذي يهدم بعضه بعضاً.

والتدبر الصادق خطر على الأفتعة؛ لأن من دخل القرآن طالباً الهداية وجد فيه مرآة تكشف تناقضه الداخلي.

الآية ٨٣

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

الخبر قوة، ولذلك هو أمانة. قد تهزم إشاعة جيشاً قبل أن تبدأ المعركة، وتثبت معلومة غير دقيقة خوفاً في مجتمع، وتمنح العدو ما عجز عن الوصول إليه. (أَذَاعُوا بِهِ).

إنها نفس لا تستطيع أن تحمل الخبر حتى تفهمه وتقدر أثره. وما كان ينتقل قديماً من فم إلى فم، يستطيع اليوم أن يعبر العالم في لحظة. لكن سرعة الوسيلة لا تعني نضج المستخدم.

ليس كل ما تعرفه يجوز أن تنتشره، وليس كل ما يصح نشره يصح في كل وقت.

﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾.

الاستنباط استخراج المعنى الخفي من الخبر وربطه بسياقه وآثاره. فالأمور المتعلقة بالأمن والخوف لا تُدار بانفعالات الجمهور، بل تُرد إلى الرسول ﷺ في حياته، وإلى أهل الأمر والعلم والخبرة.

ولا يبرر ذلك احتكار الحقيقة أو جعل «المصلحة العامة» ستارًا لإخفاء الفساد؛ فالأمانة مطلوبة من الناشر والمسؤول معًا: لا إذاعة متهورة، ولا كتمان خائن.

ثم تذكر الآية بأن العصمة من اتباع الشيطان فضل ورحمة من الله؛ فالإنسان أضعف من أن يستغني عن هداية ربه.

الآية ٨٤

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا) [النساء: ٨٤].

توجه الآية إلى النبي ﷺ: (لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ).

القائد مسؤول عن موقفه وبلاغه وبذل وسعه، لكنه لا يملك قلوب الآخرين. يمضي في الحق ولو تثاقل من حوله، ولا يجعل تخاذلهم عذرًا لتخليه عن تكليفه.

هذه الآية تربي الإنسان على ألا يعلق واجبه دائمًا بغيره. قد يقول: لو تحرك الناس لتحركت، ولو صدق أصحابي لصدقت. لكن التكليف يبدأ من نفسك؛ افعل ما أوجب الله عليك، ثم ادع غيرك إليه.

(وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ).

التحريض إيقاظ للعزائم وتذكير بالغاية، لا سوق للناس إلى الموت من خلف المكاتب. وقد كان الرسول ﷺ في مقدمة أصحابه، يحمل معهم الخطر ولا يطالبهم بما يتخلف عنه.

ثم ترد الآية القوة كلها إلى الله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكُّيًّا﴾.

ليست كثرة العدو نهاية الحساب، ولا قوة المؤمنين هي المصدر المستقل للنصر. إنما هم أسباب، والله قادر على كف بأس المعتدين.

الآية ٨٥

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥].

لا تقع القرارات من أصحابها المباشرين وحدهم. هناك من يرشح ويزكي ويتوسط ويمهد الطريق.

قد لا تظلم بيدك، لكنك تفتح للظالم بابًا.

وقد لا تنقذ المظلوم مباشرة، لكن كلمتك ترفع عنه الضرر.

الشفاعة الحسنة أن تضع تأثيرك في خدمة حق، والشفاعة السيئة أن تستعمل مكانتك لتغيير ميزان العدل.

ومن زكى غير المؤهل لأنه قريبه لم يمنحه منفعة خاصة فحسب، بل شارك في آثار الضرر الذي نتج عن وصوله. فالكلمة فعل حين تفتح الأبواب.

﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾.

للولسيط نصيب من النتيجة؛ لأن الأسباب الأخلاقية تشارك في ثمار ما صنعت. ولا يغسل الإنسان يده بقوله: أنا لم أفعل، إنما أوصيت به.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾.

الله مقتدر وحفيظ ومطلع، يوصل إلى كل إنسان نصيبه مما تسبب فيه.

الآية ٨٦

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

بين آيات الحرب والأمن والشفاعة تأتي التحية. وكأن بناء المجتمع لا يكتمل بالقرارات الكبرى، بل يحتاج إلى أخلاق يومية تجعل الحياة قابلة للسكن.

التحية إعلان صغير للسلام، واعتراف بوجود الآخر وكرامته. والمجتمع الذي يبخل أفراداه بالسلام لا تنفذه كثرة القوانين من الجفاف الداخلي.

ثم تطلب الآية الزيادة في الخير: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

لا تجعل الخير يصل إليك ثم ينتهي؛ استقبله وردّه، وإن استطعت فزد عليه. هكذا ينمو المعروف بين الناس: كلمة طيبة تستدعي كلمةً أطيب، وسلام يفتح في القلب مساحة أمان.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

حتى التحية الصغيرة تدخل الحساب. فلا توجد تفاصيل تافهة في ميزان الأخلاق إذا كانت تبني المودة أو تهدمها.

الآية ٨٧

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

بعد حركة الناس في الدنيا، وتفرقهم بين طاعة ونفاق، وردت الآية الجميع إلى موعد واحد: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾.

قد تتفرق الأجساد في القبور، وتضيع آثارها في الأرض، لكن الذي خلقها أول مرة يجمعها. لا تضيع نفس في زحام القرون، ولا يعجز البعث من لا إله إلا هو.

وجاء القسم في اللام والنون المؤكدة ليهدم ريب النفوس: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

فالقيامة ليست احتمالاً دينياً، بل حقيقة آتية. وكل قرار في الدنيا يحمل داخله موعد عرضه هناك.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

لا أحد أصدق من الله؛ لأن الكذب ناشئ عن خوف أو نقص أو حاجة، والله سبحانه منزّه عن ذلك كله. وإذا كان خبر القيامة صادراً عن لا أصدق منه، فقد صار الغيب أثبت في قلب المؤمن من مشاهد الدنيا الزائلة.

الآية ٨٨

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) [النساء: ٨٨].

تكشف الآية أن النفاق لا يربك صاحبه وحده، بل يربك المجتمع في تقدير موقفه. انقسم المؤمنون في شأن طائفة ظهرت منها أمارات الخيانة؛ فريق نظر إلى ظاهر الانتساب، وفريق نظر إلى حقيقة الموقف.

(وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا).

ردهم إلى الضلال بسبب ما اختاروه وكسبوه؛ فالجزاء لم يقع اعتباطاً، بل جاء عقب مسار من الخداع والإعراض.

ثم تقول: (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ).

لا يملك الإنسان هداية القلوب. عليه البيان والنصح، لكن التوفيق بيد الله. ومن أضله الله بعدله لما أعرض واختار الضلال، لا يستطيع بشر أن يخلق له سبيل الهداية.

وهذا لا يبرر اليأس من الناس أو الحكم على سرائر الأفراد، بل يحرر الداعية من وهم أنه يملك القلوب. يبذل السبب، ويترك النتائج لمن يعلم ما في الصدور.

الآية ٨٩

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) [النساء: ٨٩].

لا يكتفي هؤلاء بما اختاروا من الكفر، بل يتمنون أن يفقد المؤمنون إيمانهم حتى يستولوا معهم. فالمنحرف قد يضيق بوجود المستقيم؛ لأن استقامته تظل مرآة تكشف انحرافه.

وجاء الحكم هنا في سياق طائفة محاربة خانت الجماعة وانضمت فعلياً إلى صف العدو، لا في كل مخالف أو من أظهر معصية أو نفاقاً ظنياً. فلا يجوز اقتطاع الآية من سياق الحرب، وتحويلها إلى رخصة لقتل الناس بالتهمة.

جُعِلَت الهجرة في سبيل الله دليلاً عملياً على صدق الانضمام إلى جماعة المسلمين في تلك المرحلة. فإن تولوا إلى معسكر الحرب، صار حكمهم حكم المحاربين.

والأحكام المتعلقة بالقتال ليست متروكةً للأفراد والفوضى والانتقام، وإنما نُنَزِّلُهَا السلطة الشرعية ضمن شروطها وضوابطها، وإلا تحولت حماية المجتمع إلى باب لتمزيقه.

ثم تأتي الآية التالية لتبين الاستثناءات، وتمنع التوسع في الدماء.

الآية ٩٠

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا) [النساء: ٩٠].

حتى في أجواء الخيانة والحرب لا يسمح القرآن أن تضيع الفروق بين الناس. فمن لجأ إلى قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق دخل في حمايته، ومن ضاق صدره عن قتال المسلمين وعن قتال قومه واعتزل المعركة، فليس محارباً. (فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ).

ثلاثة معالم ظاهرة: اعتزال، وكف عن القتال، وإلقاء للسلم. فإذا تحققت، جاء الحكم القاطع: (فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا).

لا تستعملوا القدرة لتصنعوا عداوةً بعد أن زال سبب القتال. فالقتال وسيلة لدفع العدوان، لا شهوة تبحث عن ضحية.

وفي قوله: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ) تذكير للمؤمنين بأن كف هؤلاء عن قتالهم نعمة من الله، فلا يقابلوها بالعدوان.

القوة الأخلاقية تعرف متى تقاتل، وتعرف متى تتوقف. أما القوة التي لا تعرف التوقف فقد انتقلت الحرب من ميدانها إلى قلبها.

الآية ٩١

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَّمْ يَعْتَزْلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَاخْذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) [النساء: ٩١].

في مقابل من صدق في الاعتزال، تصف الآية صنفاً آخر يريد الأمن من الطرفين بالمخادعة. يظهر للمؤمنين ما يؤمنه عندهم، ثم إذا عاد إلى قومه انغمس في فتنهم وعدوانهم.

(كُلُّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا).

لا يقفون في مساحة حياد حقيقي، بل يعودون إلى المشاركة في الحرب كلما دُعوا إليها. يريدون السلامة لأنفسهم، لا السلام للناس.

ولهذا كررت الآية شروط العصمة:

أن يعتزلوا،

ويلقوا السلم،

ويكفوا أيديهم.

فإن لم يفعلوا واستمروا في القتال والخيانة، صار للمسلمين عليهم سلطان مبين في سياق الحرب المشروعة.

والفرق بين الآيتين دقيق: ليست القضية أسماء الجماعات ولا الظنون في القلوب، بل السلوك الظاهر تجاه القتال والسلم. من كف يده فلا سبيل عليه، ومن رفعها محاربًا عومل بصفته محاربًا.

هكذا يمنع القرآن السذاجة التي تترك المجتمع للخيانة، ويمنع في الوقت نفسه التوسع الذي يجعل الشك مبررًا لسفك الدم.

خاتمة الفصل

القوة التي لا تفقد ميزانها

بدأ الفصل بالأمر بالحدز، ثم كشف المتباطئين، وأظهر دعاء المستضعفين، وميّز بين سبيل الله وسبيل الطاغوت، وربط الخوف بحقيقة الموت، ورد الطاعة إلى الرسول ﷺ، وحمل الخبر من الإذاعة المتهورة، ثم انتهى بالتفريق الدقيق بين المحارب والمعتزل.

إنها هندسة أخلاقية للقوة.

فالحذر لا يتحول إلى جبن.

والشجاعة لا تتحول إلى تهور.

والطاعة لا تتحول إلى تقديس للبشر.

والأمن لا يتحول إلى سذاجة أمام الخيانة.

والقتال لا يتحول إلى عدوان على من ألقى السلام.

وفي قلب ذلك كله يقف المستضعف؛ الرجل والمرأة والطفل الذين لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. إنهم يذكرون القوة بسبب وجودها: ليست لتبني مجدها من دمائهم، بل لتفتح لهم طريق النجاة.

لكن أخطر ما قد يقع للقوة أن تظن أن الميدان أعفاها من الأخلاق. ولهذا سنتنقل السورة في الفصل التالي إلى حرمة النفس، فتضع الدم تحت سياج بالغ الشدة، وتأمّر بالتبیین قبل السلاح، ثم تفتح للمضطهد طريق الهجرة، وتقيم الصلاة في قلب الخوف.

الفصل السابع

حُرْمَةُ الدَّمِّ وَهِنْدَسَةُ النَّجَاةِ

مِنَ التَّيِّبِينَ قَبْلَ السِّلَاحِ إِلَى الصَّلَاةِ فِي قَلْبِ الْخَوْفِ

بعد أن فرّقت السورة بين المحارب والمعتزل، وحرمت العدوان على من ألقى السلام، تنتقل إلى حرمة النفس الإنسانية؛ لأن الحرب قد تجعل الموت مألوفًا في العين، وقد تحمل المقاتل على اختصار الطريق من الاشتباه إلى القتل.

وحيث يكثر الدم، يحتاج القلب إلى من يعيد لكل نفس وزنها. فالمقتول ليس رقمًا في بيان، بل عالم كامل انطفأ: ذاكرة وأحلام وعلاقات ومستقبل كان يمكن أن يعيشه.

ولهذا تضع السورة في قلب آيات القتال سياجًا حول الدم، وتلزم المؤمن بالتبيين، وتفرّق بين الخطأ والعمد، وبين العاجز والقادر، وبين من بقي تحت الاستضعاف مضطرًا ومن رضي به مع قدرته على الهجرة.

الآية ٩٢

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء: ٩٢].

تبدأ الآية بصياغة تشعر بأن قتل المؤمن عمداً لا ينسجم مع حقيقة الإيمان: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ).

ليس من شأن الإيمان أن تتحول يد صاحبه إلى أداة تهدم حياة مؤمن. فإذا وقع القتل، فلا يتصور في الأصل إلا أن يكون خطأ.

لكن الخطأ، مع كونه يرفع إثم العمد، لا يجعل النفس التي ذهبت كأنها لم تكن. هناك أسرة فقدت إنساناً، ومجتمع أصيب بجرح، وقاتل يحتاج إلى تطهير نفسه من أثر ما وقع.

لذلك جمعت الآية بين حقين: (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ): حق يتعلق بالتكفير والتطهير.

(وَ دِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ): حق يتعلق بأهل المقتول وجبر ما يمكن جبره من المصاب.

وكان تحرير رقبة في مقابل النفس التي أزهقت يعيد إلى الحياة إنساناً كان محبوس الإرادة. انطفأت حياة خطأ، فيفتح التشريع لإنسان آخر باب الحرية.

ثم منح أهل المقتول حق التصديق بالدية: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾.

سمّى عفوهم صدقة؛ لأن الحق لهم، وإذا تركوه صدر الفضل من موضعه الصحيح. لا يملك المجتمع أن يضغط عليهم باسم التسامح، ولا يملك القاتل أن يطالبهم بالعفو كأنه حق له.

وتراعي الآية اختلاف موقع المقتول وعلاقته بالجماعات المتحاربة والمعاهدة، فتثبت للميثاق أثره، وتحفظ الحقوق حتى عبر حدود الاختلاف.

ثم من لم يجد الرقبة المؤمنة فعليه: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

شهران يعيدان إلى القلب ثقل النفس التي أزهقت. ليس الأمر كلمة «لم أقصد» ثم يُغلق الملف؛ فالصيام الطويل يجعل الجسد نفسه يحمل ذكرى الخطأ، ويتربى على اليقظة والحذر.

﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾.

إنها توبة ورحمة وتشريع يصلح آثار الخطأ، لا انتقام من إنسان لم يتعمد الجريمة.

الآية ٩٣

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) [النساء: ٩٣].

تتراكم ألوان الوعيد في الآية: جهنم، والخلود، والغضب، واللعنة، والعذاب العظيم.

لأن القاتل لم يطفئ جسداً فحسب، بل هدم عالماً كاملاً كان يسكن ذلك الإنسان. قطع عمرًا، ورمّل زوجةً، ويتم أولادًا، وحول بيتًا كان ينتظر عودة صاحبه إلى بيت يترقب جسده.

القتل اعتداء على المستقبل.

وجاء هذا الوعيد في سياق الحرب حتى لا يطبع السلاح القلب على استسهال الدم. فليس كل من اشتبّه فيه عدوًا، ولا كل من وقع في يد القوي مباحًا، ولا يجوز للحماسة أن تختصر طريق التثبت.

وقد اختلف أهل العلم في دلالة الخلود هنا ومآل قاتل المؤمن الموحد إذا مات دون توبة، مع اتفاقهم على فظاعة الجريمة وعظم الوعيد، وأن دم المؤمن ليس أمرًا يُهَوَّن.

إن أخطر ما تصنعه الحروب أن تحول الموت إلى خبر معتاد. تمر أعداد القتلى أمام العين حتى تفقد الأرقام وجوها، لكن كل رقم عند الله نفس معلومة لا تضيع في الزحام.

الآية ٩٤

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

في الميدان، حيث تبدو السرعة شرطاً للنجاة، يأمر القرآن بالتبين؛ لأن خطأ التسرع هنا لا يضيع معلومةً فقط، بل قد يقتل إنساناً.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

لا تجعلوا السلاح أسرع من الحقيقة. فالحرب لا تلغي مسؤولية العقل، والخوف لا يمنح الظن حق إصدار حكم نهائي على الدم.

ثم تقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

لا تفتحوا القلوب بسيوف الظن، ولا تردوا علامة السلام لأن وراء الرد غنيمةً ترغبون فيها. قد يتنكر الطمع في صورة الحزم، وتدفع المصلحة الإنسان إلى إسقاط حرمة الآخر ليسهل عليه أخذ ماله.

فتكشف الآية الدافع المستتر: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

إنه عرض عابر، يمر ثم يزول. أتبيعون حرمة دم باقيةً في الحساب من أجل مال يخرج من أيديكم؟

ثم تذكرهم بماضيهم: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

كنتم من قبل في حال قد تلبس فيها حقيقتكم على الآخرين، فمن الله عليكم بالإيمان والأمان. فتذكروا ضعف بداياتكم، ولا تغلقوا باب النجاة في وجه من يقف حيث وقفتم.

من نسي ضعفه القديم قسا على ضعف الآخرين.

ثم كررت الآية الأمر: (فَتَبَيَّنُوا).

التكرار هنا يحرس الدم مرتين؛ مرة من عجلة السلاح، ومرة من طمع النفس.

الآية ٩٥

(لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: ٩٥].

لا تسوي الآية بين من بذل ومن قعد دون عذر؛ فالعدل لا يساوي بين المختلفين في التضحية.

من قدم ماله ونفسه في سبيل الله ليس كمن حفظ راحته وترك غيره يحمل العبء. فالإيمان ليس دعوى في القلب وحده؛ إنه استعداد لدفع ثمن الحق حين تستدعي الحاجة.

لكن وسط تقرير الفضل تأتي العبارة الرحيمة: (غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ).

صاحب العذر ليس متخاذلاً. قد يكون قلبه في الميدان وجسده ممنوعاً، وقد يحمل من الصدق ما لا يقل عن حامل السلاح.

لا يحاكم الله الناس على ما عجزوا عنه، بل على ما اختاروه داخل قدرتهم. والمجتمع القاسي قد يمجّد صورةً واحدةً من البطولة حتى يشعر المرضى والعاجزون بأن وجودهم ناقص، أما الوحي فيعرف الطاقة التي أعطيت لكل إنسان.

ثم قالت: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

لم تُخرج القاعدين المؤمنين من دائرة الوعد، لكنها أثبتت للمجاهدين فضل البذل. إنها دقة تجمع بين حفظ فضل السابق وعدم إهدار أصل إيمان غيره.

الآية ٩٦

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦].

لا يمنح الله المجاهدين درجةً واحدةً فقط، بل: ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾.

تختلف منازلهم باختلاف الصدق والبذل والثبات والنية. قد يقف جسدان في الموضع نفسه، وبين القلبين في ميزان الله مسافات.

ثم جاءت المغفرة قبل الرحمة؛ لأن الإنسان، حتى وهو يبذل نفسه، لا يستغني عن مغفرة الله. قد يدخل عمله نقص أو تقصير، ولا ينجو بمجرد التضحية إذا خلت من الإخلاص أو شابها عدوان.

﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾.

المغفرة تمحو ما مضى، والرحمة تفيض عليه من الخير ما يتجاوز استحقاقه. وكل مجاهدة صادقة لا تبلغ منزلتها إلا بفضل الله؛ فهو الذي وفق إليها، وثبت عليها، ثم غفر ورحم.

الآية ٩٧

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

تصور الآية لحظة الموت وقد تحولت إلى مساءلة: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾.

في أي حال عشتُم؟ وأين كان موقعكم من الحق؟ ولماذا بقيتم في بيئة تمنعكم من دينكم مع قدرتكم على الخروج؟

فيجيبون: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

لكن دعوى الاستضعاف ليست عذراً مطلقاً لكل من بقي في مكان الفتنة. فقد يكون الإنسان مستضعفاً في الظاهر، لكنه يملك من أسباب النجاة ما لم يستعمله.

فتأتي الحجة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

الأرض لله، لا للظالمين. وإذا ضاق موضع بطاعة الله، فقد جعل الله في أرضه سعةً.

ولا تعني الآية وجوب الرحيل عن كل مكان يجد فيه الإنسان مشقةً أو مخالفةً، بل تتحدث عن حال يعجز فيها عن إقامة دينه ويتعرض للفتنة، مع امتلاكه قدرةً حقيقيةً على الخروج.

الوطن عزيز، لكنه لا يصبح صنماً يُعبد ولو صار البقاء فيه إهداراً للدين والكرامة. وقد تكون الهجرة وفاءً للمعنى الذي خانه المكان، لا كراهيةً للأرض.

الآية ٩٨

(إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا) [النساء: ٩٨].

بعد الوعيد يأتي الاستثناء، فيفصل القرآن بين من ادعى العجز ومن عاشه حقيقةً.

هؤلاء لا يستطيعون حيلةً للخروج، ولا يعرفون الطريق إليه. ربما حُبسوا بالفقر، أو المرض، أو صغر السن، أو غياب الوسيلة والمعرفة.

لم يحملهم القرآن ما لا يطيقون، ولم يحول عجزهم إلى تهمة.

إن العدل القرآني دقيق: لا يمنح القادر اسم المستضعف ليهرب من مسؤوليته، ولا يحمل المستضعف حقاً تكليف القادر.

وذكر الرجال والنساء والولدان يمنح الاستضعاف وجوهاً بشريةً، حتى لا يبقى مفهوماً مجرداً. هناك أب عاجز، وأم خائفة، وطفل لا يعرف طريقاً سوى الطريق الذي حُبس فيه.

إنهم لا يحتاجون إلى من يشرح لهم فضل الهجرة، بل إلى من يفتح لهم سبيلها.

الآية ٩٩

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩].

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ﴾.

إذا جاءت «عسى» من الله فهي وعد يبعث الرجاء، لكنها تبقى القلب متأدباً، لا يتكئ على العذر ويتوسع فيه.

وما أرحم أن يُختم وصف العاجزين باسمين: ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

يعفو عن التقصير الذي لم يملكوا دفعه، ويغفر ما وقع منهم. فالله أعلم بالقدر الحقيقية لكل إنسان، ولا يقيس الناس بمظهر واحد.

قد يرى الناس شخصاً قاعداً فيتهمونه، بينما يعلم الله المعركة التي يخوضها داخل جسد مريض أو واقع مغلق. وقد يرى الناس آخر عاجزاً، بينما يعلم الله الأبواب التي امتنع عن طرقها.

الحكم الكامل لمن يعلم ظاهر الحركة وباطن الاستطاعة.

الآية ١٠٠

(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) [النساء: ١٠٠].

يخرج المهاجر من المألوف، ويترك بيتًا يعرف زواياه، وطريقًا تحفظه قدماءه، ووجوهاً اعتادها. يبدو له العالم خارج موطنه فراغًا مخيفًا.

فتعده الآية: (يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً).

المستبد يريد أن يقتنع ضحيته بأن العالم ينتهي عند حدوده، وأن لا حياة لها خارجه. لكن أرض الله أوسع من سجن الظالم.

(مُرَاجِمًا) تحمل معنى الموضع الذي يجد فيه المهاجر مندوحةً وقوةً، ويراغم بخروجه من أراد إذلاله. فما ظنه الظالم نهايةً قد يجعله الله بدايةً، وما أراحه حصارًا قد يفتح بابًا إلى سعة لم تكن تخطر على البال.

لكن ماذا لو مات المهاجر قبل أن يصل؟

(فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ).

قد لا يبلغ الوجهة بجسده، لكنه بلغها بقصده وصدق خروجه. في ميزان البشر قد تبدو رحلته غير مكتملة، أما عند الله فقد تم المعنى.

خرج من بيته دون ضمان أرضي، فأصبح أجره مضموناً عند الله. قد لا يعرف أين ينام ليلته، لكنه يعرف أين حفظ سعيه.

إن الله لا يضيع من مات في الطريق ما دام الطريق إليه.

الآية ١٠١

(وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا) [النساء: ١٠١].

في السفر والخوف تُقصر الصلاة، فيأتي التخفيف من الجهة التي فرضت العبادة.

لا يطالب الله الإنسان أن يتجاهل ظرفه حتى يثبت صدقه. إنما شرع له العبادة وشرع له رخصتها، وكلاهما طاعة.

والقصر لا يعني أن الصلاة فقدت منزلتها؛ بل يعني أن الشريعة تعرف الطريق المتعب، وحركة الجيش، وخطر العدو. إنها لا تخاطب إنساناً متخيلاً يعيش خارج الواقع، بل بشرًا تمس أجسادهم المشقة ويحيط بهم الخوف.

(إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا).

فالحذر في موضع العداوة ليس سوء ظن مذمومًا، بل وعي بواقع ظاهر. والرحمة لا تعني أن يسلم الإنسان نفسه لمن أعلن حربه عليه.

الآية ١٠٢

(وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرُضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا) [النساء: ١٠٢].

حتى في قلب الميدان لا تنقطع الصلاة، لكنها تُقام في صورة تجمع العبادة بالحراسة.

تصلي طائفة، وتحرس أخرى، ثم تتبادلان المواقع. قلوب تتجه إلى الله، وأيد لا تهمل أسباب الحماية.

لا تقول الصلاة للمقاتل: انسِ عدوك.

ولا يقول الحذر له: انسِ ربك.

هنا يلتقي التوكل والتدبير. فالذي يعتمد على السلاح وحده نسي أن النصر من عند الله، والذي يترك الحذر باسم التوكل خالف أمر الله.

(وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ).

الحذر وعي، والسلاح سبب. والقرآن يجمع بين القوة المادية واليقظة الذهنية؛ فقد يملك الجيش السلاح ويُهزم بالغفلة.

ثم تكشف الآية رغبة العدو: ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

قد ينتظر العدو لحظة العبادة ليباغت المؤمنين، لكن العبادة لا تعني منحه فرصة للعدوان. الإسلام لا يفصل الخشوع عن الوعي.

ومع ذلك تراعى أحوال المرض والمطر، فيرخص في وضع السلاح مع بقاء الحذر. إنها شريعة توازن بين الحاجة الأمنية وطاقة الجسد.

وفي صلاة الخوف معنى عميق: الحرب تريد أن تختصر الإنسان في مقاتل، والصلاة تعيده عبداً. تذكره بأن السلاح في يده أمانة، وأن فوق الميدان محكمة سيقف فيها بين يدي الله.

الآية ١٠٣

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

تنتهي هيئة الصلاة، ولا ينتهي الذكر: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

في كل أحوال الجسد يبقى القلب قادراً على الاتصال بالله. قد لا يستطيع الإنسان الوقوف، لكنه يستطيع الذكر. وقد تضرب من حوله الأرض، لكن لسانه يجد في اسم الله موضع ثبات.

ثم تقول: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

الخوف اقتضى صورةً من التخفيف، فإذا عاد الأمن عادت الصلاة إلى تمامها. فالاستثناء لا يتحول إلى عادة، والرخصة لا تستمر بعد زوال سببها.

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا).

في زمن الحرب، حيث تختلط الأيام وتتغير الخطط، تبقى الصلاة موقوتة؛ أوتادًا زمنيةً تمسك روح المؤمن كيلا تبتلعها الفوضى.

الصلاة لا تنتظر فراغ الحياة من المخاطر، بل تدخل إليها وتعيد ترتيبها. ففي السلم تعرفك بنعمة الأمن، وفي الحرب تحفظ إنسانيتك من أن يبتلعها الغضب.

الآية ١٠٤

(وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء: ١٠٤].

لا تنكر الآية ألم المؤمنين: (إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ).

الإيمان لا يجعل الجرح بلا وجع، ولا الفقد بلا دمة، ولا التعب وهماً. لكنه يمنع الألم من أن يتحول إلى وهن يستسلم للباطل.

فالعُدو يتألم كذلك: (فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ).

إذا كان الألم مشتركاً، فما الذي يمنح المؤمن زيادةً في الثبات؟

(وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ).

الرجاء لا يلغي الجرح، لكنه يمنع الجرح من أن يكون الحقيقة الأخيرة. يجعل للتعب معنى، وللتضحية أجرًا، وللموت بابًا لا جدارًا.

قد ينزف جسدان بالطريقة نفسها، لكن أحد القلبين يرى وراء النزف وعدًا، والآخر لا يرى إلا خسارته.

إن تساوي الألم لا يعني تساوي المآل.

ثم تختم الآية: (وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا).

يعلم مقدار الألم الذي تحمله كل نفس، ويقدر الأحداث بحكمة، فلا تذهب تضحية في فراغ، ولا يضيع صبر وإن خفي عن الناس.

خاتمة الفصل

حين يبقى الإنسان إنساناً وهو يحمل السلاح

بدأ الفصل بحرمة الدم، وانتهى بالألم والرجاء. وبينهما أقامت السورة سياجًا أخلاقيًا حول القوة:

فرّقت بين الخطأ والعمد.

وألزمت بالتبیین قبل السلاح.

ومدّت حماية السلام إلى من أظهره.

وفضّلت المجاهد دون أن تظلم صاحب العذر.

وكشفت العجز المتوهم من العجز الحقيقي.

وفتحت في أرض الله بابًا للمهاجر.

وأبقت الصلاة قائمةً في قلب الخوف.

وجمعت بين السجود والحذر، وبين الذكر والسلاح.

القوة التي تريدها السورة ليست قوةً عمياء. إنها قوة تستطيع أن تقاتل دون أن تعبد القتال، وتحذر دون أن تظلم بالظن، وتحمل السلاح دون أن تفقد خشيتها من الدم.

وأصعب انتصار في الحرب أن يخرج الإنسان منها ولم تتحول روحه إلى نسخة من القسوة التي قاومها.

فإذا أعطته المعركة قدرةً على القتل، ذكّرتَه السورة بأن الدم أمانة. وإذا أثقلته الجراح، ذكّرتَه بأن عدوه يألم كما يألم، وأن له من الرجاء ما ليس لخصمه.

وهكذا لا تفصل السورة الجبهة عن المحراب. فالمقاتل الذي يسجد في الميدان يتذكر أن فوق قوته حكمًا، وفوق غضبه حدًّا، وفوق النصر الأرضي لقاءً مع الله.

الفصل الثامن

الْعَدْلُ الَّذِي لَا يَحْمِي الْخَائِنِينَ

مِنْ أَمَانَةِ الْحُكْمِ إِلَى كَشْفِ وَعْدِ الشَّيْطَانِ وَوَهْمِ الْأَمَانِيِّ

بعد أن وضعت السورة الدم تحت سياج التبيين، تدخل إلى ساحة القضاء؛ حيث تتنافس الروايات، ويتزين الخائن ببلاغة الدفاع، وقد يبدو البريء أضعف حجةً ممن سرقه واتهمه.

وفي المحكمة لا يكفي أن تكون القضية قريبةً من جماعتك، ولا أن يكون المتهم ممن ينتسبون إليك. فالكتاب لم ينزل ليحمي صورة الجماعة، بل ليحكم بالحق. والانتماء الذي يطلب من الإنسان أن ينصر الخائن تحوّل من رابطة إلى عصبية، ومن أمان إلى شراكة في الظلم.

ثم تنتقل الآيات من خيانةٍ وقعت في الخفاء إلى الخائن الأكبر الذي يزين للإنسان خطيئته: الشيطان. تكشف أدواته؛ الوعد، والتمنية، وتزيين الباطل، حتى تصل إلى القانون الذي يهدم الغرور كله: (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ).

الآية ١٠٥

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا) [النساء: ١٠٥].

الكتاب نزل: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

فالحق أصل في مصدره، وغاية في حكمه، وميزان تعرض عليه دعاوى الناس. لم ينزل ليكون زينةً فوق منصة القضاء، بل ليحكم بين الناس.

(بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ).

أي بما علّمك وأراك من حكمه ووحيه، لا بمجرد الانطباع الأول أو ضغط الجماعة. فالقاضي قد يسمع روايةً مصاغةً بمهارة، ويغيب عنه وجه آخر من الحقيقة، ولذلك يحتاج إلى الوحي والبيّنة والتثبت.

ثم يأتي النهي المزلزل: (وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا).

لا تجعل قدرتك على البيان سلاحاً يدافع عن الباطل. قد لا يخون الإنسان بيده، لكنه يخون حين يوظف علمه أو قلمه أو منصبه لتبرئة الخائن وإدانة البريء.

والخائن لا يصير أميناً لأنه من جماعتك، والمظلوم لا يفقد حقه لأنه من غيرها. إن سمعة الحق لا تُصان بالكذب، والجماعة التي لا تحتل الاعتراف بخطأ أحد أفرادها تجعل الانتماء أعلى من العدل.

الوحي لا يحتاج إلى ظلم ليحمي صورته.

الآية ١٠٦

(وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) [النساء: ١٠٦].

يأتي الأمر بالاستغفار بعد النهي عن الخصومة للخائنين. وفي ذلك تربية بالغة: حتى الميل الأول الذي وقع بناءً على ظاهر الحجة يحتاج إلى رجوع دائم إلى الله، واستعاذة به من أن يتسلل الهوى إلى الحكم.

والخطاب للنبي ﷺ، وهو المعصوم فيما يبلغه عن الله، وفيه تعليم للأمة أن القضاء البشري يحتاج إلى تواضع واستغفار، وألا يظن الحاكم أن موقعه يجعله فوق المراجعة.

كلما اتسعت سلطة الإنسان، ازدادت حاجته إلى الاستغفار؛ لأن خطأه لا يبقى محصوراً فيه، بل قد يهدم حياة غيره.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا).

يفتح باب التصحيح، فلا يتحول وقوع الاجتهاد غير المصيب إلى عناد دفاعاً عن الهيبة. ومن رحمة الله أن يتيح للإنسان أن يرجع قبل أن يصير الخطأ موقفاً دائماً.

الآية ١٠٧

(وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا)
[النساء: ١٠٧].

لم تقل الآية: يخونون غيرهم فقط، بل: (يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ).

فالخائن يظن أنه أخذ من مال غيره أو أوقع التهمة ببريء، لكنه في الحقيقة وجه الخيانة إلى نفسه؛ لوث قلبه، وكتب في صحيفته مظلمة، وأخرج ذاته من مقام الأمانة.

قد يتضرر المظلوم في الدنيا، لكن الخائن يحمل الضرر في تكوينه الأخلاقي ومصيره الأخروي.

وجاءت صيغة المبالغة: (خَوَّانًا أَثِيمًا).

فالخيانة المتكررة لا تبقى فعلاً منفصلاً، بل تتحول إلى وصف في صاحبها. يبدأ بخيانة صغيرة، ثم يعتاد التخفي، ويكتسب مهارة التبرير، حتى يصير الخداع طريقته في الحياة.

والنهي عن الجدال يشمل كل دفاع يعلم صاحبه أنه باطل؛ فلا يجوز للمحامي أو الكاتب أو القريب أن يجعل بلاغته جسراً تعبر عليه الخيانة إلى البراءة.

الآية ١٠٨

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ
مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا) [النساء: ١٠٨].

يخشى الخائن انكشافه أمام الناس، فيرتب روايته، ويختار الليل لنسج قوله،
لكنه يتعامل مع نظر الله كأنه معنى بعيد.

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ).

صار حكم البشر أثقل في قلبه من علم الله. يمتنع إذا كانت العين أمامه، ويقدم
إذا غاب الشهود. فالرقيب الحقيقي في ضميره هو المجتمع، لا الله.

أما التقوى فتستوي معها الخلوة والجلوة؛ لأن الذي يعلم السر هو الذي يرى
العلن.

(وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ).

معية علم وإحاطة وسمع وبصر، على ما يليق بجلال الله من غير تشبيه ولا
تمثيل. لا جدار يحجب علمه، ولا ليل يطوي المؤامرة عن إحاطته.

ثم جاء الوصف: (مُحِيطًا).

لا يعرف الله جانبًا من الفعل ويخفى عليه جانب، بل يحيط بالقول وقصده
وآثاره، وبالخائن والبريء ومن شارك في التغطية.

الآية ١٠٩

(هَآأَنْتُمْ هُؤْلَآءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَآةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَّنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) [النساء: ١٠٩].

قد ينجح الدفاع في الدنيا، فتضيع الأدلة ويُقنع القاضي وتُوجَّه التهمة بعيداً عن صاحبها. لكن ماذا بعد؟

(فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

هناك لا يحتاج الله إلى شاهد يكشف له الخفي، ولا يستطيع المحامي أن يختار من الوقائع ما يخدم موكله. الحقيقة معلومة كاملة قبل أن يبدأ الحساب.

ومن جعل نفسه وكيلاً عن الخائن في الدنيا لن يكون وكيلاً عنه أمام الله، بل قد يحتاج إلى من يدفع عنه نصيبه من الدفاع الباطل.

إن الانتصار في المحكمة لا يغير الحقيقة عند الله، والبراءة القانونية إذا بنيت على الخداع لا تتحول إلى براءة أخلاقية.

ما أقصر المسافة بين سؤال الدنيا: من يستطيع إثبات الجريمة؟ وسؤال الآخرة: من يستطيع إنكارها؟

الآية ١١٠

(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا) [النساء: ١١٠].

بعد كشف الخيانة وتهديد المدافعين عنها، لا يغلق القرآن الباب أمام الخائن نفسه.

(ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ).

ليس مطلوباً منه أن يواصل الكذب حفاظاً على صورته، بل أن يعود. قد ساء فعله وظلم نفسه، لكن الجريمة لم تصبح هويته الأبدية ما دام قادراً على التوبة ورد الحقوق.

(يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا).

لم تقل الآية: يعلم أن الله غفور، بل (يَجِدِ)؛ كأن المغفرة حقيقة يلقاها التائب حين يصدق في طريقه. يجد سترًا بعد انكشافه لنفسه، ورحمةً بعد قسوة الذنب.

لكن الاستغفار في حقوق العباد لا يكون كلمةً مع إبقاء المال المسروق في اليد والتهمة فوق رأس البريء. من صدق في توبته رد الحق، وبراً المظلوم، وأصلح ما استطاع من أثر الجريمة.

إن الله يغفر، لكنه لا يجعل الاستغفار وسيلةً لأكل حقوق الناس.

الآية ١١١

(وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّهُ يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء: ١١١].

الإثم كسب؛ لأن الإنسان تحرك إليه واختاره، لكنه كسب يعود عليه بالخسارة.
(فَإِنَّهُ يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ).

قد يظن أنه أوقع الضرر بخصمه وحده، لكن كل معصية تعود أولاً إلى فاعلها. تُظلم الروح قبل أن يُظلم الآخر، ويُثقل الكتاب قبل أن تمتلئ اليد بالمال.

لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا تستطيع الجماعة أن توزع الإثم حتى يخف عن أفرادها. لكل إنسان ما كسب.

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا).

يعلم من فعل ومن أعان ومن سكت، ويفصل بينهم بحكمة لا تخلط درجات المسؤولية.

الآية ١١٢

(وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا)
[النساء: ١١٢].

الخطيئة جريمة، لكن رمي البريء بها جريمة أخرى. لم يكتف المذنب بأن يلوّث نفسه، بل حاول أن يغسل صورته بسمعة إنسان بريء.
(يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا).

في فعل الرمي صورة القذف بحمل ثقيل؛ ينزع الجاني الخطيئة من روايته ويلقيها على ظهر من لم يفعلها.

وقد ينجو المتهم الحقيقي من العقوبة الدنيوية، لكن الآية تقول إنه:
(احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا).

ظن أنه نقل الحمل إلى البريء، فإذا به يضاعف الحمل فوق ظهره هو. فالبريء لا يصير مذنبًا بما قيل عنه، أما المفترى فيحمل فعلته وبهتانه.

وهكذا تصح الآخرة أكاذيب الصورة: قد يعيش بريء تحت نظرات الاتهام، لكن براءته محفوظة عند الله، وقد يعيش الجاني بثوب الشرف، لكن الجريمة لم تغادر صحيفته.

الآية ١١٣

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء: ١١٣].

حاولت طائفة أن تدفع الحكم بعيداً عن الحقيقة، لكن فضل الله ورحمته عصما رسوله ﷺ من أن يستقر على باطل في الحكم.

(وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ).

كل محاولة لإطفاء الحق تبدأ بإظلام قلب صاحبها. قد يحيك الإنسان رواية ليضل غيره، لكنه يكون أول من ضل فيها؛ لأنه اختار أن يعيش داخل كذبه.

ثم تذكر الآية منابع العصمة والهداية:

(وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ).

الكتاب هو الوحي المتلو، والحكمة ما علّمه الله رسوله من فهم وبيان وسنة. فلا تنفصل الرسالة عن بيان حاملها، ولا تكون السنة الصحيحة منافسةً للقرآن، بل من الحكمة التي علّمها الله نبيه.

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ).

العلم فضل، لا صناعة بشرية مستقلة عن الله. ومن أعظم فضل الله على الرسول ﷺ أنه تولى تعليمه وحفظه وبيان الحق له.

الآية ١١٤

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: ١١٤].

ليست كل المجالس المغلقة مؤامرات، لكن كثيرًا من النجوى يدور فيما لا خير فيه: غيبة، أو تدبير لإيذاء، أو تضخيم خلاف، أو كلام يستهلك العمر بلا منفعة.

ثم تستثني الآية ثلاثة مسارات:

(صَدَقَةٍ): خير يصل إلى حاجة إنسان.

(مَعْرُوفٍ): كل بر تقره الشريعة والفطرة السليمة.

(إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ): عمل يعيد ما قطعتة الخصومة.

وقد يحتاج الخير أحيانًا إلى نجوى؛ تحفظ كرامة الفقير، أو تمنع اتساع النزاع، أو تخفي مبادرة الإصلاح حتى تنضج.

لكن الفعل الصالح لا يبلغ تمامه إلا بالقصد: (ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ).

قد يصلح إنسان بين اثنين ليبنى لنفسه نفوذًا، أو يعطي صدقة ليذكر. أما من ابتغى مرضاة الله فله الأجر العظيم؛ لأن العمل تجاوز أثره الظاهر إلى إخلاص القلب.

الآية ١١٥

(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء: ١١٥].

المشاقة أن يقف الإنسان في شق والرسول في شق آخر، بعد أن تبين له الهدى. فليست المشكلة التباساً عارضاً، بل انفصال متعمد بعد ظهور الطريق.

ثم قرنت الآية مشاقة الرسول باتباع غير سبيل المؤمنين؛ لأن جماعة المؤمنين في اجتماعها على الحق وحفظها له ليست أمراً مهملاً. وقد استدل العلماء بهذه الآية على حجية إجماع الأمة المعتبر.

لكن التحذير الأشد في قوله: (نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ).

من اختار طريقاً وأصر عليه قد يُترك إليه، فيظن أن عدم العقوبة العاجلة رضا، وهو في الحقيقة خذلان. وما أقسى أن يمنح الإنسان ما أصر عليه، ثم يكتشف أن اختياره نفسه كان عقوبته!

الهداية ليست أن تُفتح لك الطرق كلها، بل أن يوفقك الله إلى الطريق الذي ينجيك. أما من جعل هواه ولياً، فقد يُسلم إلى ما تولاه حتى يقوده إلى جهنم.

الآية ١١٦

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) [النساء: ١١٦].

تكرر السورة قاعدة الشرك، لكن خاتمة الآية هنا تختلف عن الآية ٤٨. قالت هناك: ﴿فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وقالت هنا: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

فالشرك افتراء من جهة ما ينسبه إلى الله، وضلال بعيد من جهة ما يصنعه بطريق الإنسان.

ومن مات عليه دون توبة لم يدخل تحت المشيئة التي يغفر الله بها ما دونه. أما من تاب في حياته، فإن الله يغفر الشرك وغيره؛ فالتوبة تهدم ما قبلها.

والضلال البعيد لا يعني أن طريق العودة مغلق ما دام الإنسان حيًّا، بل يعني أن الشرك أبعد عن أصل الهدى، وأن نجاته تحتاج إلى عودة جذرية إلى التوحيد.

الآية ١١٧

(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا) [النساء: ١١٧].

كان المشركون يسمون بعض أصنامهم بأسماء مؤنثة، ويتخذونها آلهة يطلبون منها ما لا يملكه إلا الله.

لكن عبادتهم في حقيقتها ليست للحجارة ذاتها فحسب: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾.

فالشيطان هو الذي زينها، ودعا إلى عبادتها، وصرف بها القلوب عن الله. والمريد هو المتمرد الذي بلغ الغاية في العصيان.

إن الباطل الظاهر قد يكون مجرد واجهة، بينما يقف خلفه شيطان يقود اتجاه القلب. والإنسان قد يظن أنه يتبع تقليد آبائه، لكنه في الحقيقة يستجيب لخطئة أقدم هدفها إبعاده عن ربه.

الآية ١١٨

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨].

لُعِنَ الشيطان، أي طُرد وأبعد عن رحمة الله بسبب تمرده. لكنه لم يكتف بسقوطه؛ أقسم أن يفتن من عباد الله نصيبًا يتبعه.

﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾.

اختار لنفسه حصةً من البشر، لا يملكها بحق، لكنه يسعى إليها بالإغواء. يريد أن يحول العبودية التي خُلقوا بها لله إلى تبعية له.

غير أن سلطان الشيطان ليس قهراً يجرد الإنسان من اختياره. إنه دعوة وتزيين ووعد، ومن استجاب له حمل مسؤوليته. لا يستطيع الشيطان أن يجبر قلباً اعتصم بالله، لكنه يدخل من الأبواب التي تفتحها الشهوة والغفلة.

الآية ١١٩

﴿وَلَا ضِلَّتَهُمْ وَلَا مَنِّتَهُمْ وَلَا مُرْتَبَنَهُمْ فَلْيُبَيِّكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

تكشف الآية خطة الشيطان:

﴿لَا ضِلَّتَهُمْ﴾: يغير الاتجاه.

﴿وَلَا مَنِّتَهُمْ﴾: يملأ الفراغ بأحلام مخدرة.

﴿وَلَا مُرْتَهُمْ﴾: ينتقل من الوسوسة إلى قيادة السلوك.

إنه لا يبدأ غالبًا بالأمر الصريح بالكفر، بل يزرع أمنيةً تؤجل التوبة، أو تصورًا يجعل المعصية بلا عاقبة، أو وعدًا بأن العمر طويل.

ثم ذكر قطع آذان الأنعام ضمن طقوس الجاهلية، وتغيير خلق الله في طاعته وفطرته وما يدخل فيه من التغيير المحرم الذي أمر به الشيطان. وليس كل تغيير في الأشياء أو معالجة للجسد داخلًا فيه؛ فالمذموم ما حرمه الله وكان ثمرة طاعة الشيطان أو العبث بالفطرة، أما العلاج وإزالة الضرر والمباحات فلها أحكامها.

والخطر الأعظم: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا﴾.

الولي يُطاع ويُتبع ويُركن إليه. ومن جعل الشيطان قائدًا خسر خسرانًا مبينًا؛ لأنه استبدل ولاية الله التي تهديه بولاية عدو أقسم أن يضلّه.

الآية ١٢٠

(يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) [النساء: ١٢٠].

الشیطان لا یملك خزائن ما یعد به. یمنح صوراً فی الخیال، ویخفی الثمن فی الواقع.

یقول للعاصي: ستتوب لاحقاً.

وللظالم: لن نحاسب.

وللبخیل: إن أعطیت افتقرت.

وللمرائي: قیمتك فیما یقوله الناس.

ولصاحب الشهوة: هذه المرة لن تترك أثراً.

(وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا).

الغرور وعد یلمع من الخارج ویخفی الفراغ داخله. فإذا بلغ الإنسان ما تمناه وجد اللذة أقصر من التبعة، والربح أضیق من الخسارة.

والشیطان لا یطلب من الإنسان أن یؤمن بوعدہ نظرياً؛ یكفيه أن یتصرف كأنه صادق. قد یقول المرء إنه یؤمن بالآخرة، ثم یبني قراراته كلها على وعود الشیطان العاجلة.

الآية ١٢١

(أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا) [النساء: ١٢١].

بعد الأمنيات تأتي الحقيقة: (مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ).

والمأوى في أصله المكان الذي يلجأ إليه الإنسان طلباً للأمان، لكنهم اتخذوا الشيطان ولياً حتى صار مأواهم ناراً. بحثوا عن الراحة في طاعته، فانتهوا إلى موضع لا راحة فيه.

(وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا).

لا يجدون مهرباً ولا طريقاً يميلون به عنها. في الدنيا كان أمامهم طريق التوبة، أما بعد الحساب فقد انتهى زمن الاختيار.

إن أخطر ما في وعد الشيطان أنه لا يخبر أتباعه بنقطة النهاية.

الآية ١٢٢

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء: ١٢٢].

في مقابل وعد الشيطان الغرور يأتي وعد الله الحق.

قال عن الشيطان: (وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا)،

وقال عن نفسه سبحانه: (وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا).

الإنسان يعيش بين وعدين: وعد قريب يزينه الشيطان ولا يملكه، ووعد غيبي يقدمه الله ويضمنه. والامتحان هو: أي الوعدين يصبح أثقل في القرار؟
ثم يثبت الخلود: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

فنعيم الجنة لا يهدده الفناء. إن كثيرًا من لذات الدنيا يفسدها علمنا بقرب زوالها، أما الجنة فقد نُزِعَ منها خوف النهاية.
﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

لا أحد؛ لأنه الغني الذي لا يحتاج إلى الكذب، والقادر الذي لا يعجز عن الوفاء. وإذا كان الشيطان يعد بما لا يملك، فإن الله يعد من خزائن لا تنفذ.

الآية ١٢٣

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

هذه الآية تهدم غرور الانتساب كله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾.

لا يكفي أن تتمنى النجاة لأنك تنتسب إلى الإسلام، كما لا تنفع أهل الكتاب أمانيتهم في احتكار القرب من الله. فالآخرة لا تُوزع وفق الأسماء، بل وفق الإيمان والعمل والفضل الإلهي.

الأمنية تريد النتيجة دون طريقها. يتمنى الإنسان الجنة، لكنه لا يريد أن يخسر عادةً من أجلها. ويحب المغفرة، لكنه يبقي المظالم في يده.

ثم يأتي قانون المسؤولية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

لا حصانة تمنحها الجماعة للمسيء، ولا نسب يعطل الحساب. وقد يكون الجزاء في الدنيا بما يصيب الإنسان من آثار الذنب، أو في الآخرة إن لم يغفر الله له.

ولا تعني الآية إغلاق باب المغفرة، فقد سبقتها آيات التوبة والمشيمة؛ لكنها تهدم الاتكال الكاذب الذي يجعل الرجاء ذريعةً لترك العمل.

الرجاء الصادق يدفع إلى التوبة، أما الأمنية فتمنح الذنب فراشاً مريحاً.

الآية ١٢٤

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

بعد قانون الجزاء على السوء يأتي باب العمل الصالح مفتوحاً للرجل والمرأة: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾.

لا يحتكر جنس الطريق إلى الله، ولا تضيع حسنة امرأة لأن المجتمع قلل من شأنها. ميزان الآخرة لا يحمل تحيزات البشر.

لكن العمل الصالح مرتبط بالإيمان: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

فالإيمان يمنح العمل وجهته، والعمل يثبت صدق الإيمان. لا يغني أحدهما عن الآخر في بناء العبودية الكاملة.

ثم جاء الوعد: ﴿قَالُوا لَكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

لا لأن أعمالهم أثمان مساوية لنعيمها، بل برحمة الله وفضله بعد أن أخذوا بأسبابها.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

النقير شيء يسير في نواة التمر. فلا تضيع أصغر حسنة، ولا ينقص إنسان من حقه بسبب جنسه أو نسبه أو ضعفه في الدنيا.

الآية ١٢٥

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

بعد نفي الأماني ترسم الآية حقيقة الدين: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

الوجه عنوان القصد والاتجاه. وإسلامه لله أن تتوحد الوجهة، فلا يعيش الإنسان بوجه للناس ووجه للخلوة، ولا بعبادة لله وطاعة مطلقة للهوى.

لكن الإسلام القلبي لا يبقى دعوى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

الإحسان أثر يظهر في العمل؛ إخلاص لله ومتابعة لرسوله وإتقان للخير. فالدين يجمع صدق الوجهة وحسن الحركة.

ثم: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

الحنيف هو المائل عن الشرك إلى التوحيد، المستقيم على عبادة الله وحده. لم يكن إبراهيم عليه السلام أسير قومه وعاداتهم؛ انحاز إلى الحقيقة ولو وقف وحده أمام عالم الأصنام.

(وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا).

الخلة مقام عظيم من المحبة والقرب يليق بجلال الله، من غير تشبيه بعلاقات المخلوقين. بلغ إبراهيم هذا المقام بكمال توحيده وصدقه وابتلائه ووفائه.

ومن أراد الانتساب إليه، فطريقه ليس الأمنية، بل الحنيفية والتسليم والإحسان.

الآية ١٢٦

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا) [النساء: ١٢٦].

بعد الحديث عن الخلة، تمنع الآية كل توهم يوهم أن الله احتاج إلى خليه أو إلى عبادة خلقه: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ).

الكل ملكه، وإبراهيم عبد من عباده، وقد شرفه الله بالخلة فضلاً منه. فالخالق غني عن العالمين، والخلق جميعاً مفتقرون إليه.

وهذه الملكية تهدم وهم الإنسان بأنه يملك نفسه أو ماله ملكاً مطلقاً. كل ما في يدك داخل ملك الله، وأنت مستخلف فيه زمناً ثم ترده.

(وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا).

إحاطة علم وقدره وسلطان تليق بجلاله، لا تشبه إحاطة المخلوق بالمخلوق.
لا يخرج عن علمه سر، ولا عن ملكه كائن، ولا عن قدرته أمر.
وإذا كان الله محيطًا بكل شيء، فلا يضيع بريء أثمهم، ولا ينجو خائن احتماى
برواية، ولا تنسى حسنة خفية، ولا تختفي نجوى خلف الجدران.

خاتمة الفصل

لا ينجو الإنسان بالرواية التي صنعها عن نفسه

بدأ الفصل بخائن حاول أن يرمي جريمته على بريء، وانتهى بإحاطة الله
بكل شيء. وبين البداية والنهاية سقطت الأقنعة واحدًا بعد آخر.

سقط قناع الانتماء حين نهى الله عن الدفاع عن الخائن.

وسقط قناع السر حين أحاط الله بما يبيتون.

وسقط قناع البراءة المصنوعة حين حمل المفترى بهتان.

وسقط قناع النجوى حين جعل الخير فيها صدقةً ومعروفًا وإصلاحًا.

وسقط قناع الشيطان حين ظهرت أمانيه غرورًا.

وسقط قناع الانتساب حين قيل: (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ).

إن الإنسان يستطيع أن يصنع روايةً يقنع بها الناس، وقد يكررها حتى تكاد
تخدعه، لكنه لا يستطيع أن يغير الحقيقة في علم الله.

والعدل القرآني لا يطلب منك أن تنصر جماعتك في كل حال، بل أن تمنعها من الظلم إن استطعت. لا تكن محامياً دائماً عن القريب، ولا تجعل مهارتك في اللغة وسيلةً لتضليل المحكمة.

فالبلاغة إذا خاضت عن الخائن صارت شريكاً في خيانتها، والعلم إذا استعمل لتزيين الباطل أصبح حجاباً عن الهداية.

ومع ذلك لم يغلق القرآن الباب؛ فمن يعمل سوءاً ثم يستغفر الله يجده غفوراً رحيمًا. غير أن التوبة لا تعني استبدال رواية جميلة بأخرى، بل رد الحقوق، وتبرئة البريء، وإصلاح ما أفسدته اليد واللسان.

إن النجاة ليست أمنيةً، ولا انتساباً، ولا صورةً عند الناس. إنها إيمان يصح الوجهة، وعمل صالح يثبتها، ورحمة من الله تتدارك نقص الطريق.

الفصل التاسع

الْقِسْطُ الَّذِي يَبْدَأُ مِنَ النَّفْسِ

مِنْ حُقُوقِ النِّسَاءِ وَالْيَتَامَى إِلَى كَشْفِ الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّفَاقِ

تعود سورة النساء، بعد حديثها عن القضاء والنجوى والشيطان والأمانى، إلى الموضوع الذي بدأت منه: النساء واليتامى.

وهذه العودة ليست تكراراً، بل إحكام للدائرة. فقد بدأت السورة من الضعيف الذي يقع حقه في يد القوي، ثم جالت في الأسرة والدولة والحرب والمحكمة، لتقول في كل موضع إن المشكلة واحدة وإن تغيرت صورها:

ماذا يصنع الإنسان بالقوة التي أُعطيت له؟

ثم تبلغ السورة ذروة خطابها في آية القسط؛ فلا تكتفي بأن تطالب الإنسان بالعدل مع اليتيم والمرأة والخصم، بل تدخله إلى المحكمة شاهداً على نفسه، وعلى والديه، وعلى أقرب الناس إليه.

وهناك ينكشف الفرق بين الإيمان والنفاق: المؤمن يقبل أن يحكمه الحق ولو خسر، والمنافق يقف مع الجهة التي يتوقع عندها الربح.

الآية ١٢٧

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا) [النساء: ١٢٧].

يسألون الرسول ﷺ عن النساء، فيأتي الجواب: (قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ).

ليست حقوق النساء خاضعةً لأمزجة الرجال ولا لتقاليد القبيلة. الله هو الذي يبين الحكم، ويخرج المرأة من سلطة العرف إلى عدل الوحي.

ثم تعود الآية إلى يتامى النساء؛ إلى اليتيمة التي قد يرغب وليها في زواجها لجمالها أو مالها، لكنه لا يعطيها ما كتب الله لها. وقد يرغب عنها إذا كانت قليلة الجمال أو المال، بينما يبقيا تحت ولايته ويمنعها من الزواج بغيره.

في الحالتين تتحول الولاية إلى وسيلة للاستحواذ.

(اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ).

المشكلة ليست غياب العاطفة، بل حبس الحق. فالقرآن لا يطلب أولاً أن يحب الولي اليتيمة، وإنما أن يؤدي إليها ما كتب الله لها.

ثم تضم الآية المستضعفين من الولدان؛ لأن مجتمع الغلبة كان يحرم من لا يحمل السلاح. فيأتي الوحي ليجعل ضعفهم سبباً لحماية أشد، لا سبباً لإسقاط الحق.

ثم تجمع الأمر كله: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾.

لم تقل: أن تعطوهم شيئاً من الشفقة، بل أن تقوموا لهم بالقسط. فالمطلوب ليس إحساناً عابراً، بل نظام عدل يظل قائماً حين تتغير المشاعر.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

قد لا يعرف اليتيم مقدار ما بذلته لحفظ حقه، وقد لا يشكر أحد، لكن الخير لا يضيع إذا علمه الله.

الآية ١٢٨

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

لا تتحدث الآية عن بيت مثالي، بل عن علاقة شعرت فيها المرأة بأن زوجها بدأ ينشز أو يعرض، وأن الدفء ينسحب من حياتها.

لا تنكر السورة الشرخ، ولا تطالب المرأة أن تتوهم السكينة وهي تعيش الإعراض. تفتح أمام الطرفين باب التفاوض: ﴿أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾.

قد تتنازل المرأة باختيارها عن بعض حقها لتحفظ علاقة ترى الخير في استمرارها، وقد يتفق الزوجان على صيغة جديدة تعيد التوازن. لكن الصلح لا يكون صلحاً إذا فرض على الضعيف تحت التهديد.

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

خير من خصومة تأكل العمر، ما دام صلحاً حقيقياً يحفظ الكرامة ولا يجعل التنازل باباً لاستدامة الظلم.

ثم تكشف الآية العقبة الساكنة داخل النفوس: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾.

الشح ليس في المال وحده؛ قد يشح الإنسان بالاعتذار، أو بالتنازل، أو بالاعتراف بخطئه. يريد حقه كاملاً، ويقيس واجبه بميزان أخف.

فالصلح يحتاج إلى سخاء روعي؛ أن يميز الإنسان بين الكرامة التي يجب حفظها، والكبرياء الذي يمنعه من الرجوع.

الآية ١٢٩

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

العدل الكامل في ميل القلب ليس في قدرة الإنسان؛ فالمشاعر لا تتحرك دائماً بمقادير متساوية.

لكن العجز عن تسوية القلوب لا يبيح الجور فيما يملكه الإنسان من النفقة والقسم والمعاملة: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾.

لا تسمحوا للميل القلبي أن يتحول إلى حرمان ظاهر، ولا تجعلوا امرأة: ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

ليست ذات زوج يؤدي إليها حقوقها، ولا مطلقةً تتطلق في طريقها. حاضرة في الاسم، غائبة عن حقيقة الحياة.

وهذا من أشد الظلم: أن يبقى الإنسان غيره معلقاً ليحتفظ لنفسه بكل الخيارات، بينما يسلب الطرف الآخر حق الاستقرار والقرار.

لكن السورة لا تغلق باب العلاج: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾.

الإصلاح يعالج أثر الميل في الواقع، والتقوى تحرس القلب من الاسترسال فيه. ثم تأتي المغفرة والرحمة؛ لأن الله يعلم أن العدل بين القلوب متعذر، لكنه يحاسب على ما يملكه الإنسان من أفعال.

الآية ١٣٠

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

لا يجعل القرآن استمرار الزواج غايةً مطلقةً تُضحى من أجل صورتها بالأرواح. فإذا استنفدت وسائل الإصلاح، وضاعت العشرة عن المعروف، فقد يكون الفراق باباً إلى السعة.

﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾.

ما أرحم هذا التعبير! لا يقول إن أحد الطرفين قد انتهى، ولا إن المستقبل أُغلق. يرد كليهما إلى سعة الله.

قد ينكسر شكل من أشكال الحياة، ولا تنكسر الحياة كلها. وقد يُغلق باب، وتبقى خزائن الله أوسع من الباب الذي أُغلق.

فلا ينبغي أن يقبل الإنسان إذلاً دائماً لأنه يتوهم أن رزقه أو كرامته محصوران في شخص. الذي جمع قادر على أن يغني بعد الفراق، والذي فتح الطريق أول مرة لا تعجزه بداية أخرى.

(وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا).

سعته تمنع اليأس، وحكمته تمنع العيب. فلا يُطلب الفراق عند كل خلاف، ولا يُمنع حين يصير استمرار العلاقة باباً للأذى.

الآية ١٣١

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) [النساء: ١٣١].

بعد وعد الزوجين بالسعة، تذكر الآية مصدرها: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ).

من يملك الكون لا تضيق خزائنه بانتهاء علاقة أو فقد مصدر رزق. إنما يضيق أفق الإنسان حين يظن أن نعمة الله جاءت من باب واحد ولا تستطيع أن تأتيه من غيره.

ثم تكشف الآية وحدة الوصية عبر الرسالات: (أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ).

التقوى ليست خاصةً بأمة محمد ﷺ، بل وصية الله للذين أوتوا الكتاب من قبل.
فالرسالات تلتقي في أصل العبودية ومراقبة الله.

ثم يقرر الغنى الإلهي: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.
طاعة الخلق لا تزيد ملك الله، ومعصيتهم لا تنقصه. إنهم ينتفعون بإيمانهم
ويضرون أنفسهم بكفرهم.
﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

غني عن العالمين، محمود في ذاته وأسمائه وأفعاله وشرعه، سواء حمده
الناس أم جحدوا فضله.

الآية ١٣٢

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٣٢].

يتكرر تقرير الملك؛ لأن القلب سريع التعلق بالأسباب. قد يقرأ الإنسان مرة
أن الملك لله، ثم يعود ليتصرف كأن رزقه في يد بشر.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

الوكيل هو الذي تُفَوَّض إليه الأمور مع الثقة بكفايته وحسن تدبيره. ولا يعني
التوكل ترك العمل، بل أن تبذل السبب دون أن تجعل قلبك عبداً له.

من جعل إنساناً وكيله المطلق عاش خائفاً من تغييره، أما من توكل على الله
علم أن الأسباب تتبدل، لكن المدبر لا يغيب.

قد يخذل البشر، وتُغلق أبواب، وتتغير العلاقات، ويبقى الله وكيلاً كافياً لعبده.

الآية ١٣٣

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

يخاطب الناس جميعاً ليهدم وهم الاستغناء: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾.

وجود البشرية ليس ضرورةً تحكم على الله، تعالى عن ذلك. خلقها بمشيئته، ولو شاء لأذهبها وجاء بغيرها.

وهذا المعنى يهدم غرور الجماعات التي تتصور أن الرسالة متوقفة عليها، أو أن الله لن ينصر دينه إلا بها. قد يستبدل قومًا بقوم إذا حمل الأولون الاسم وتركوا الأمانة.

إن خدمة الدين تشریف للعبد، لا حاجة من الله إليه. ومن فهم ذلك عمل متواضعاً، ولم يحوّل دوره إلى منّة على الرسالة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾.

لا يعجزه الاستبدال، ولا يحفظ الجماعة من الزوال اسمها أو تاريخها، بل صدقها فيما حُمّلت.

الآية ١٣٤

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) [النساء: ١٣٤].

قد يضيق الإنسان طلبه فيريد من العمل ثواب الدنيا وحدها: مألًا أو جاهًا أو نصرًا عاجلاً. فتفتح له الآية الأفق: (فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ).

لماذا تطلب الجزء وتترك الكل؟ ولماذا تتبع الباقي بالعاجل، والاثنان في خزائن الله؟

لا تعيب الآية طلب الخير في الدنيا، وإنما تعيب حصر الغاية فيها. فالمؤمن يسأل الله حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، ويجعل الدنيا طريقًا لا نهاية.

(وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا).

يسمع الدعاء، ويرى العمل، ويعلم هل تحرك القلب لوجهه أم لثناء الناس. قد يتشابه فعلاان في الظاهر، ويكون أحدهما للدنيا والآخر لله، والفرق في موضع لا يراه إلا السميع البصير.

الآية ١٣٥

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ نَعِرْضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

هذه هي القمة التي كانت السورة تصعد إليها منذ ندائها الأول: ﴿خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

بدأت بوحدة الأصل حتى تهدم الاستعلاء، وحمت اليتيم، وصانت المرأة، وقسمت الميراث، وأمرت بالأمانة، وردت النزاع إلى الوحي، ثم وقفت بالإنسان أمام عدوه الأقرب: هواه.

﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾.

لم تقل: اعدلوا مرةً، بل اجعلوا العدل وصفًا ثابتًا فيكم. فالقوام لا ينتظر أن يوافق القسط مصلحته؛ يقوم به كلما سقط، ويحمله كلما ثقل.

والعدل يحتاج إلى قيام؛ لأن الظلم تسانده القوة والعادة والخوف، ولا يكفي أن نحب الحق في قلوبنا ما لم يوجد من يرفعه في الواقع.

ثم قالت: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾.

ليست الشهادة لإرضاء القاضي أو الجماعة، بل لله. فإذا شهد الإنسان لله، لم يغير قوله لأن القوي غضب، ولم يخفف الحقيقة لأن المتهم قريبه.

ثم يبدأ الامتحان من أشد الجهات قرباً: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾.

النفس محامٍ بارع عن ذاتها؛ تختار لنفسها أخف التفسيرات، ولخصمها أشدها. خطؤها اجتهد، وخطأ غيرها انحراف. صمتها حكمة، وصمت غيرها خيانة. والقسط على النفس أن تقول: أخطأت، حين يكون الاعتراف مكلفاً، وأن ترد ما لا استقرار في يدك، وأن تقبل حكماً ينتزع منك ميزة لا تستحقها.

ثم: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

البر لا يعني معاونتهم على الظلم، والمودة لا تبيح تزوير الحق. من البر بالوالد الظالم أن تمنعه من حمل مظلمته إلى الآخرة، لا أن تحميه من ظهورها في الدنيا.

ثم تمنع الآية الميل للغني خوفاً أو طمعاً، والميل للفقير شفقةً: ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

الله أرحم بالفقير منك، وأعلم بمصلحة الغني. فلا تمنح الفقير حق غيره، ولا تتبع الفقير لهيبة الغني.

ثم تكشف القاضي المستتر: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾.

الهوى لا يأتي دائماً باسمه. قد يدخل في ثوب المصلحة أو العصبية أو الدفاع عن الدين. وكلما كان الإنسان أذكى، استطاع هواه أن يصوغ لنفسه حججاً أكثر إقناعاً.

ثم تحذر من لي الحقيقة أو الإعراض عنها. فقد لا يكذب الإنسان صراحةً، لكنه يذكر جزءاً ويحذف جزءاً، أو يصمت حين تكون شهادته هي الباب الوحيد إلى الحق.

الصمت أمام الظلم ليس محايداً دائماً؛ قد يكون قوةً أضيفت إلى جانب الظالم.

الآية ١٣٦

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

كيف يخاطب الذين آمنوا بقوله: ﴿آمِنُوا﴾؟

لأن الإيمان ليس كلمةً قيلت وانتهى أمرها، بل حقيقة تحتاج إلى تجدد وثبات وازدياد. آمنوا إيماناً يملأ القلب، ويصحح العمل، ويجمع أركان الاعتقاد دون انتقاء.

قد يحمل الإنسان اسم الإيمان، ثم تضعف بعض حقائقه في داخله. فيأتي النداء ليعيده إلى الأصل: جددوا عهدكم بالله ورسوله وكتبه ورساله واليوم الآخر.

وخص القرآن بقوله: ﴿الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾،

ثم ذكر جنس الكتب السابقة؛ فالقرآن آخر الكتب والمهيمن عليها، والإيمان به لا ينفصل عن الإيمان بأصل ما أنزل الله قبل أن تمسه أيدي التحريف.

والكفر بركن من هذه الأركان ليس نقصاً جزئياً في البناء، بل ضلال بعيد؛ لأن العقيدة نسيج متكامل، لا قائمة يختار الإنسان منها ما يحب.

الآية ١٣٧

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧].

ترسم الآية قلباً جعل الإيمان والكفر محطتين في لعبة المصلحة. يدخل حين يناسبه الدخول، ويخرج حين يثقل الثمن، ثم لا يقف عند الكفر بل: (أَرَادُوا كُفْرًا).

ليس التردد العابر أو الوسوسة التي يكرهاها المؤمن هي المقصودة، بل تقلب متعمد ينتهي بالإصرار والزيادة في الكفر.

كل انتقال يترك أثراً في القلب. من يفتح باب الردة كلما تغيرت المصلحة لا يعود إلى النقطة نفسها؛ تتآكل حساسيته للحق، ويصبح الرجوع أصعب.

فإذا انتهى طريقه بالازدياد في الكفر والموت عليه، لم يكن أهلاً للمغفرة والهداية. وليس ذلك عجزاً في الرحمة الإلهية، بل نتيجة قلب اختار أن يغلق كل باب فتح له.

الآية ١٣٨

(بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [النساء: ١٣٨].

استعملت البشارة في موضع التهديد؛ لتزداد المفارقة مرارةً. فالمنافق ينتظر من حساباته خبر النجاة، فإذا نهاية الطريق عذاب أليم.

كان يظن أن بقاءه بين الصفوف وحفظه خطوط الرجعة سيؤمنانه، لكن الخداع لا يتحول إلى نجاة بطول استعماله.

النفاق يريد ثمار الإيمان دون تكاليفه، والسلامة من الكفر دون إعلان مفاصلته. لكنه في النهاية لا يجمع الخيرين، بل يجمع خيانة الباطن وكذب الظاهر.

الآية ١٣٩

(الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّهُنَّ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) [النساء: ١٣٩].

يكشف القرآن الدافع: (أَبِيتُّهُنَّ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ).

نظروا إلى ميزان القوة الظاهر، فجعلوا ولاءهم استثمارًا سياسيًا، وطلبوا مكانتهم عند جهة ظنوا أنها الأقدر على منحها.

لكن من جعل قيمته مرهونةً برضا قوة بشرية عاش ذليلاً لها، ولو ظن أنه صار عزيزاً بقربه منها. فالعزة المستعارة قابلة للسحب، وصاحبها مضطر إلى تقديم مزيد من التنازلات كي يحتفظ بمكانه.

(فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا).

لا يملك بشر من العزة شيئاً استقلالاً. ومن طلبها بطاعة الله لم يحتج أن يبيع ضميره على أبواب الخلق.

ولا تنتهى الآية عن العدل والتعامل والعهود المشروعة مع غير المسلمين؛ وإنما تنهى عن ولاية تناقض الإيمان، وتضع مصالح أعداء المؤمنين فوق جماعتهم ودينهم.

الآية ١٤٠

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) [النساء: ١٤٠].

ليس الحضور محايداً دائماً. قد يتحول الصمت إلى غطاء، ويصبح بقاء الإنسان في مجلس الاستهزاء منحاً له شعوراً بالأمان.

لا تأمر الآية بالاعتداء على المستهزئ، لكنها تأمر بعدم مشاركته المجلس ما دام يخوض في الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

(حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ).

فالحكم متعلق بالفعل؛ إذا تغيّر الحديث زال سبب المفارقة. إنها مقاطعة أخلاقية للموقف، لا إدّنا بالفوضى أو العدوان.

أما من يبقى راضياً أو مستحسنًا، فقد شارك في الإثم: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾.

المنافق يستطيع الجلوس في كل مجلس؛ لأنه لا يحمل في قلبه معنى مقدساً يخشى عليه. يضحك هنا، ويؤكد ولاءه هناك، ويظن التلون ذكاءً اجتماعيًا.

أما المؤمن فيعرف أن المرونة لا تعني فقد العمود الفقري.

الآية ١٤١

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

المنافق لا يصنع الموقف، بل ينتظر النتيجة. يهيئ روايتين حتى ينتمي إلى المنتصر بعد ظهور الغلبة.

إذا فُتح للمؤمنين قال: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ﴾.

وإذا كان للكافرين نصيب قال لهم: ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنه يحتفظ لكل فريق بوثيقة يبرزها في وقتها. لا يملك موقفًا، بل قدرةً على إعادة تفسير ماضيه.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

قد تتجح ازدواجية اللغة في الدنيا، لكن يوم القيامة يجمع الروايتين ويكشف القلب الذي صنعهما.

ثم وعد الله بالألا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً نهائياً يستأصل به أصل الإيمان؛ والعاقبة للمتقين، وإن وقعت للمؤمنين هزائم بسبب تقصيرهم أو ابتلاء لهم. أما السبيل الكامل في الحجة والمآل فلن يكون للكفر على الإيمان.

الآية ١٤٢

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) [النساء: ١٤٢].

يتصرفون كأنهم يستطيعون أن يمنحوا الله صورةً ظاهريةً عن أنفسهم كما يخدعون البشر. يؤدون الحركات ويخفون الكفر، ويظنون أن النجاة متعلقة بالشكل.

لكن خداعهم عائد عليهم، والله يجازيهم على مكرهم بما يستحقون، على وجه يليق بجلاله وعدله. إنهم لا يخدعون الله حقيقةً، وإنما يخدعون أنفسهم حين يتوهمون ذلك.

ثم تكشف الصلاة ما في الداخل: (قَامُوا كُسَالَى).

ليس كل كسل عارض نفاقاً؛ فقد يضعف المؤمن ويجاهد نفسه. إنما وصف المنافقين أن الصلاة ثقيلة عليهم لأن قلوبهم لا تقصد الله بها.

(يُرَاءُونَ النَّاسَ).

لا يصلي لله بقدر ما يصلي أمام الصورة التي يريد تثبيتها في أذهانهم. فإذا غاب الجمهور غاب الدافع.

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا).

الذكر يعيد الأشياء إلى أحجامها؛ يصغر الناس حين يُذكر الله، وتصغر الدنيا حين تُذكر الآخرة. ولذلك يقل الذكر في حياة المنافق؛ لأن بناءه كله يحتاج إلى تضخيم الناس والمصلحة العاجلة.

الآية ١٤٣

(مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) [النساء: ١٤٣].

هذه الكلمة التي تلخص وجود المنافق: (مُذَبِّبِينَ).

ليس له مركز أخلاقي يعود إليه. يتحرك بحسب الخوف والطمع، ويغير موقفه كلما تغير اتجاه القوة.

ليس التذبذب المقصود حيرة الباحث الذي يطلب الحق، ولا مراجعة الرأي بعد ظهور الدليل؛ فالتراجع إلى الحق فضيلة. وإنما هو غياب الأصل الثابت، وتغير المبادئ بتغير المنفعة.

(لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ).

أراد أن يكسب الجانبين، فانتهى بلا انتماء صادق إلى أي منهما. يخسر الثقة هنا، ولا يُمنح الأمان هناك، ويبقى معلقاً بين أبواب لا تفتح له كاملاً.

ومن أضله الله بعدله بسبب إصراره، فلن يجد له أحد سبيل هداية؛ فمفاتيح القلوب ليست في يد البشر.

الآية ١٤٤

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا) [النساء: ١٤٤].

يناديهم باسم الإيمان ليمنعهم من السير في طريق المنافقين. فالولاء ليس علاقةً سطحية، بل انحياز ونصرة وقرب يكشف الجهة التي ينتمي إليها القلب.

ولا تحرم الآية البر والقسط والتعامل المشروع مع غير المحاربين، فقد جاءت نصوص القرآن بذلك، وإنما تنهى عن ولاية تجعل المؤمن يناصر الكفر على المؤمنين أو يمنحه أسرارهم وقوتهم في مواجهة جماعتهم.

(أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا).

أي حجة ظاهرة تستوجب المؤاخذه. فالإنسان قد يخفي نيته، لكن الفعل الصريح يصير برهاناً عليه.

إن الله لا يعاقب الناس بالظنون؛ وإنما تقوم عليهم الحجة بما اختاروه وأظهروه.

الآية ١٤٥

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا) [النساء: ١٤٥].

الدرك مراتب الهبوط، والمنافقون في أسفلها؛ لأنهم جمعوا الكفر والخداع، والانتماء الظاهر إلى المؤمنين والعمل على إضعافهم من الداخل.

العدو الخارجي يظهر عداوته، أما المنافق فيأكل الثقة التي يقوم عليها المجتمع. يستطيع الناس أن يحرسوا أبوابهم من خصم معروف، لكنهم ينهارون حين لا يعرفون أي يد تصافح وأيها تخفي الخيانة.

والنفاق يفسد المعاني نفسها؛ يجعل الناس يشكون في الصدق لأنهم رأوا الشعارات العظيمة تُستعمل لمصالح صغيرة.

(وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا).

بحثوا عن العزة عند القوى المتغيرة، فلما سقطت الأقنعة لم يجدوا نصيرًا. كل من أرضوه بمعصية الله يتخلى عنهم عند الحساب.

الآية ١٤٦

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: ١٤٦].

حتى بعد ذكر الدرك الأسفل، لا تغلق السورة باب العودة.

لكن التوبة من النفاق ليست كلمةً جديدةً تضاف إلى قاموس الكلام؛ إنها تحول في البنية الداخلية، ولذلك ذكرت الآية معالمها:

﴿تَابُوا﴾: رجعوا عن الطريق.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾: رمموا ما أفسدوه.

﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾: أمسكوا بالركن الذي لا يتغير.

﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾: وَّحَّدوا الوجهة بعد حياة الأقنعة.

من عاش يفسد عليه أن يصلح، ومن عاش متعلقًا بالقوى المتغيرة عليه أن يعتصم بالله، ومن قسم وجهه بين الجماهير عليه أن يخلصه الله.

ثم تأتي الرحمة: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لم تجعلهم الآية في هامش الجماعة محكومًا عليهم إلى الأبد بماضيهم. إذا صدقت التوبة عادوا مع المؤمنين.

إن رحمة الله لا تفتح الباب نصف فتحة، ولا تجعل الذنب القديم هويةً أبديةً لمن أصلح.

الآية ١٤٧

﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

بعد الدرك الأسفل والعذاب الأليم تنفتح واحدة من أرق آيات السورة:

﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾.

الله سبحانه غني عن تعذيب خلقه، لا ينتفع بطاعتهم ولا يتضرر بمعصيتهم.
إنما يعاقب بالعدل، وقد بيّن طريق النجاة وفتح باب العودة.

لو آمن الإنسان وشكر، فما الذي يدفعه إلى العذاب؟

المشكلة ليست في ضيق الرحمة، بل في قلب يصّر على طريق الهلاك حتى آخره.

(وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا).

يشكر لعبده طاعته، فيثيب على القليل كثيرًا، ويقبل العمل وينميّه. وشكر الله لعبده يليق بجلاله، ليس كشكر المخلوق المحتاج، بل ثناء وقبول وجزاء من الغني الكريم.

وهو عليم بصدق القلب، وإن لم يره الناس. فالمنافق عاش ليصنع صورته عند البشر، أما المخلص فيكفيه أن الله يعلمه ويشكر له عمله.

خاتمة الفصل

حين يسقط القناع ويبقى الوجه

بدأ الفصل بحقوق اليتيمات والنساء، ثم ارتفع إلى القسط ولو على النفس، وانتهى بكشف النفاق وفتح باب التوبة.

والخيط الجامع أن الله يريد من الإنسان وجهًا واحدًا:

وجهاً عادلاً داخل البيت وخارجه.

وجهاً لا يتغير مع الغني والفقير.

وجهاً يقول الحق على النفس والقريب.

وجهاً يصلي لله لا لعيون الناس.

وجهاً يطلب العزة من الله لا من رضا القوى المتقلبة.

المنافق لا يملك وجهاً ثابتاً؛ إنه مرآة تعكس الجهة الأقوى في كل لحظة. فإن كان الفتح للمؤمنين قال: ألم نكن معكم؟ وإن كان للكافرين نصيب قال: ألم نساعدكم؟

يحسب أنه بمرونته يربح العالمين، لكنه يفقد نفسه بينهما.

أما المؤمن فقد يضعف ويتردد ويخطئ، لكنه يملك مركزاً يعود إليه. إذا ظهر له الحق سلم، وإذا ظلم تاب، وإذا مال صح ميزانه. لا يعيش بقلب مع الله ولسان مع الناس، بل يجاهد ليكون ظاهره امتداداً لباطنه.

وفي قلب الفصل تقف آية القسط كمرآة لا تسمح لأحد أن يختبئ خلف خصومه: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾.

فالعدل الذي لا يصل إلى النفس يبقى أداةً نحاكم بها الآخرين. والتدين الذي لا يملك صاحبه الاعتراف بخطئه قد يتحول إلى قناع يحمي الهوى.

ثم تأتي النهاية الرحيمة: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾.

ليست السورة محكمةً تريد إهلاك الإنسان، بل نورًا يكشف مرضه حتى يبرأ. تفضح النفاق، ثم تدل على التوبة. تذكر الدرك الأسفل، ثم تفتح الطريق إلى صحبة المؤمنين.

الفصل العاشر

الْبُرْهَانُ وَالنُّورُ

مِنْ صَوْتِ الْمَظْلُومِ إِلَى وَحْدَةِ الْوَحْيِ وَاكْتِمَالِ الْمِيثَاقِ

تدخل السورة فصلها الأخير وقد أقامت ميزان القسط في النفس والمجتمع، وكشفت النفاق، وفتحت باب التوبة. ثم تنتقل إلى صوت المظلوم، وإلى العفو الذي يصدر عن قدرة، قبل أن تواجه انحراف أهل الكتاب في تلقي الوحي ومواقفهم من الأنبياء.

إنها لا تعرض تاريخهم للتسليية ولا لتمنح أمة محمد ﷺ شعورًا بالتفوق المجرد؛ بل لتكشف قوانين الانحراف التي يمكن أن تصيب كل أمة: طلب الخوارق تعنتًا، ونقض الميثاق، وتحريف الكلم، وقتل الأنبياء، والغلو في الصالحين، واختيار بعض الرسل والكفر ببعض.

ثم تختتم السورة بما بدأت به: حماية الحق المالي. فبعد الحديث عن السماوات والرسل والمسيح والبرهان والنور، تعود الآية الأخيرة إلى تركة صغيرة يسأل الناس عن قسمتها.

كأن القرآن يقول: لا قيمة للحديث عن العقيدة الكبرى إذا لم يظهر أثرها في الدرهم الذي يصل إلى صاحبه.

الآية ١٤٨

(لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا)
[النساء: ١٤٨].

الأصل أن يُصان اللسان عن السوء، وأن تحفظ أعراض الناس من التشهير. لكن الآية تفتح للمظلوم مساحةً يجهر فيها بمظلمته: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾.

فإلزامه بالصمت قد يتحول إلى حماية للظالم. وقد يحب بعض الناس هدوء المظلوم أكثر مما يحبون رفع الظلم عنه، فيقولون له: اصبر، ولا تتحدث، واحفظ صورة الجماعة.

فيُطلب منه أن يحمل الألم والعار معًا؛ يتأذى في الخفاء، ثم يحمي سمعة من آذاه في العلن.

لكن شكوى المظلوم ليست التي صنعت القبح؛ إنها كشفت ما صنعه الظلم. ولا تبيح الآية له الكذب أو تجاوز حدود مظلمته، لكنه يملك أن يبين ما وقع عليه، ويطلب حقه، ويحذر من الأذى بقدر ما يحقق العدل.

ثم تأتي الخاتمة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

يسمع شكوى المظلوم، ويعلم حقيقة ما وقع، ويميز بين من يتكلم ليسترد حقه ومن يجعل المظلمة ذريعةً لظلم جديد.

الآية ١٤٩

(إِنْ تُبْذُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا) [النساء: ١٤٩].

بعد أن منحت المظلوم حق الجهر، فتحت له باب العفو. لم تفرض عليه الصمت، ولم تحرمه مقام الصفح.

والعفو الجميل مرتبط بالقدره: (عَفُوًّا قَدِيرًا).

فالعفو ليس عجزًا يتنكر في لغة التسامح، وإنما أن تملك حق المؤاخذه ثم تختار الترك ابتغاء وجه الله، حين يكون العفو إصلاحًا ولا يشجع الظالم على مزيد من الأذى.

أما مطالبة الضعيف بالعفو حتى يبقى القوي آمنًا من المحاسبة، فليست دائمًا دعوةً إلى الفضيلة؛ قد تكون صورةً أخرى من خذلانه.

لا يملك المجتمع أن يعفو عن حق فرد دون رضاه، ولا يملك الظالم أن يفرض المصالحة على ضحيته. فالصفح ثمرة حرية، لا نتيجة ضغط.

وقد يكون العدل في بعض المواطن محاسبة الظالم وردعه حمايةً لمن سيظلمهم بعد ذلك. فليس كل عفو أصلح، كما أن كل عقوبة لا تكون انتقامًا.

الآية ١٥٠

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) [النساء: ١٥٠].

لا يقبل الإيمان أن ينتقي الإنسان من رسل الله وفق هواه القومي أو التاريخي؛ فمن آمن بالله حقاً آمن بمن أرسلهم.

(وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ).

لا يقولون إنهم يفرقون بين الله ورسله بالسنتهم، لكنهم يفعلون ذلك حين يزعمون الإيمان بالله ويرفضون رسله. فالإيمان بالمرسل يستلزم تصديق رسالته.

ثم يطلبون طريقاً وسطاً: (نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ).

لكن الوحي ليس قائمة يختار الإنسان منها ما يوافق انتسابه. إن رفض رسول واحد لأنه جاء من غير قومه طعن في المصدر الذي أرسل الرسل جميعاً.

لا توجد منطقة إيمان بين تصديق الله وتكذيب رسالته.

الآية ١٥١

(أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا) [النساء: ١٥١].

قد يسمون موقفهم إيمانًا جزئيًا، لكن القرآن يسمي حقيقته: (الْكَافِرُونَ حَقًّا).

لأنهم لم يؤمنوا بالرسل الذين قبلوهم على الحقيقة؛ إذ لو صدقوهم لآمنوا بما بشروا به من استمرار الوحي ووجوب تصديق رسل الله.

ووصف العذاب بأنه: (مُهِينًا).

لأن الكفر هنا ارتبط باستعلاء جعل الإنسان يختار من رسل الله وفق عصبيته، ويحتقر من لم يأت من قومه.

ومن استعلى على الحق أهين بالعدل، لا ظلمًا، بل جزاءً على ما اختار.

الآية ١٥٢

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) [النساء: ١٥٢].

المؤمنون يصدقون رسل الله جميعًا. يحبون محمدًا ﷺ ويتبعونه، ويؤمنون بموسى وعيسى وإبراهيم ونوح وسائر الأنبياء عليهم السلام.

ولا يعني عدم التفريق تسوية الرسل في جميع الخصائص والفضائل؛ فقد فضل الله بعضهم على بعض. المقصود عدم التفريق في أصل الإيمان بهم.

فالمسلم لا يحتاج ليعظم نبيه أن ينتقص نبياً آخر؛ لأن الأنبياء إخوة في أصل الرسالة، خرج نورهم من مشكاة واحدة.

الحق لا يبني مجده بهدم إخوانه.

ثم جاء الوعد بالأجر، وختم بالمغفرة والرحمة؛ لأن المؤمن، مع إيمانه بالرسول، يظل محتاجاً إلى مغفرة نقصه ورحمة ربه.

الآية ١٥٣

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا) [النساء: ١٥٣].

لم يكن طلب كتاب ينزل عليهم من السماء بحثاً بريئاً عن الدليل، بل تعنتاً ينقل صاحبه من علامة إلى أخرى حتى لا يؤمن.

فالذي يريد الهداية يكفيه البرهان، أما الذي يريد الهرب فلن تنتهي شروطه. كلما جاءت آية طلب غيرها؛ لأنه لا يبحث عن النور، بل عن تأجيل لحظة التسليم.

وتذكرهم الآية بما سأل أسلافهم موسى عليه السلام: (أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً).

طلبوا أن تقع الذات الإلهية تحت إدراك أبصارهم في الدنيا، متجاوزين حد المخلوق ومقام الإيمان بالغيب، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم.

ثم وقع التناقض الفادح: الذين طلبوا رؤية الله جهرةً عبدوا بعد البيئات عجلًا صنعته الأيدي!

حين ينحرف معيار التلقي قد يرفض الإنسان الإيمان بالغيب لأنه لا يراه، ثم يخضع لحجر يراه ويصنعه بنفسه. ليست المشكلة إذن في غياب الرؤية، بل في قلب يريد معبودًا يستطيع التحكم فيه.

ومع ذلك قالت الآية: ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾.

سبق العفو مع عظم الجريمة، وأُعطى موسى سلطانًا مبيّنًا. فالتاريخ لم يخل من الرحمة، لكن تكرار النكث بعد العفو جعل المسؤولية أشد.

الآية ١٥٤

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤].

رُفِعَ الطور فوقهم آيةً مهيبَةً عند أخذ الميثاق، حتى يشعروا بثقل العهد الذي يتلقونه.

ثم أُمرُوا أن يدخلوا الباب سجّدًا؛ فالدخول إلى النعمة يبدأ بالتواضع، لا بزهو المنتصر. فالسجود يطهر النصر من الغرور، ويعلم الإنسان أن الأرض التي دخلها لم تفتح بقوته مستقلةً عن الله.

ثم نُهوا عن العدوان في السبت، فكان التكليف امتحانًا للطاعة أمام المصلحة. وقد عرف بعضهم الحد، ثم بحث عن حيلة تحافظ على صورته وتنقض معناه.

(مِيثَاقًا غَلِيظًا).

هو الوصف نفسه الذي أطلقته السورة على ميثاق الزواج. فالعلاقات الكبرى لا تقوم على الرغبة العابرة، بل على عهود ثقيلة: عهد بين الزوجين، وعهد بين الأمة وربها.

وغلظة الميثاق تعني أن نقضه ليس زلة صغيرة، بل انهيار في أصل العلاقة.

الآية ١٥٥

(فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) [النساء: ١٥٥].

تتراكم الجرائم: نقض الميثاق، والكفر بالآيات، وقتل الأنبياء، ثم الادعاء بأن القلوب مغلقة لا يصل إليها ما يقوله الرسول.

(قُلُوبُنَا غُلْفٌ).

قد يقصدون أنها في أغطية لا تفهم الخطاب، أو أنها أوعية ممتلئة بالعلم لا تحتاج إلى غيره. وفي الحاليين يتحول الانغلاق إلى فضيلة مزعومة.

لكن الحقيقة: (بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ).

لم يقع الطبع ابتداءً بلا سبب، بل جاء بسبب كفرهم وإصرارهم. أغلقوا نوافذ القلب مرة بعد مرة، حتى صار الإغلاق طبعًا وجزاءً.

إن أخطر عقوبات الإعراض أن يفقد الإنسان قدرته على الشعور بأنه معرض. يظن صلابته ثباتًا، وانغلاقه علمًا، ورفضه للحق وفاءً للهوية.

ولا تعمم الآية الحكم على كل فرد من أهل الكتاب، فقد استثنت الآيات اللاحقة الراسخين في العلم والمؤمنين منهم. إنما نتحدث عن الذين ثبتت فيهم هذه الأفعال.

الآية ١٥٦

﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

كانت مريم عليها السلام عنوانًا للطهر، فجعلها البهتان هدفًا؛ لأن الكذب حين يعجز عن إسقاط الحقيقة يهاجم حاملها في عرضه.

﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾.

البهتان كذب يبهت البريء من فظاعته، ولا سيما حين يمس العرض. وقد صان الله مريم، وأنطق ابنها في المهد، وجعل قصتها آيةً تتلى، بينما بقيت التهمة شاهدًا على قبح من صنعها.

إن السمعة قد تتأذى في الأرض، لكن الحقيقة لا تتغير في علم الله. وقد يرفع الناس البهتان زمنًا، ثم يحفظ الله للمظلوم ذكره قرونًا.

وذكر هذه الجريمة بعد قتل الأنبياء يكشف أن اغتيال السمعة قد يقف بجوار اغتيال الجسد في منظومة واحدة من مقاومة الحق.

الآية ١٥٧

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) [النساء: ١٥٧].

ادعوا أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، فجاء الرد القرآني قاطعاً:
(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ).

لم ينجحوا في قتل عيسى عليه السلام، ولم يقع الصلب عليه، وإنما وقع لهم الاشتباه، واختلفوا في حقيقة الأمر بلا علم يقيني.
(إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ).

والظن لا يستطيع أن يحمل حقيقة عقدية بهذا الحجم. قد تتكاثر الروايات، لكن كثرتها لا تحول الشك إلى يقين إذا غاب العلم.
ثم كرر القرآن النفي: (وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا).

أي لم يقتلوه قتلاً متيقناً، واليقين الذي يقرره الوحي أن الله نجاه ورفعته إليه.
وتقف العقيدة الإسلامية هنا عند خبر الله؛ فلا تتجاوز النص إلى قصص تفصيلية لم يثبت بها دليل صحيح في تعيين من أُلقي عليه الشبه وكيف وقع ذلك.

خبر الله هو مصدر المعرفة في هذا الغيب.

الآية ١٥٨

(بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) [النساء: ١٥٨].

(بَلْ) تبطل دعوى القتل، وتنقل المشهد إلى الحقيقة: ﴿رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

رفع الله عيسى إليه رفعا يليق بما أخبر به سبحانه، إلى جهة العلو، من غير تكيف ولا تمثيل، مع الإيمان بأن الله ليس كمثله شيء، وأن أخبار الغيب تُتلقى كما جاءت بلا خوض فيما لم يبينه الوحي.

لم تكن نجاة عيسى عجزاً من أعدائه عن الوصول إليه وحدهم، بل فعلاً إلهياً أظهر عزة الله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

عزيز لا يغلبه مكرهم، حكيم في الطريقة والوقت والمال الذي اختاره لنبيه.

تصور القوم أنهم أحكموا خطتهم، فإذا فوق تدبيرهم تدبير لا يستطيعون إدراكه. وحين يريد الله نجاة عبد، لا تصبح كثرة المتآمرين قدراً أعلى من قدرته.

الآية ١٥٩

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)
[النساء: ١٥٩].

من أشهر معاني الآية أن أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان سيؤمنون به قبل موته، حين تظهر حقيقة رسالته وعبوديته لله، ويزول الغلو والجفاء اللذان أحاطا به.

وقيل: إن كل واحد من أهل الكتاب يؤمن بحقيقة عيسى عند حضور موته، حين ينكشف الغطاء، لكن ذلك الإيمان لا ينفع من لم يؤمن في زمن الاختيار.

وفي كلا المعنيين يقف عيسى عليه السلام شاهداً يوم القيامة على حقيقة الرسالة التي بلغها، وعلى مواقف الناس منه.

لقد ظلمه فريقان: فريق اتهم أمه وكفر برسالته، وفريق رفعه فوق مقام العبودية إلى الألوهية. والحق يقف بين الجفاء والغلو: رسول كريم، وكلمة ألقاها الله إلى مريم، وعبد لله لا يستنكف عن عبادته.

الآية ١٦٠

(فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) [النساء: ١٦٠].

كان تحريم بعض الطيبات عليهم عقوبةً بسبب ظلمهم، لا لأن تلك الطيبات خبيثة في ذاتها.

﴿فَبِظُلْمٍ﴾.

يربط الحكم بسببه، حتى لا يُتوهم أن الجزاء وقع بلا استحقاق. لقد ضيقوا على أنفسهم بالمعصية، فجاء التضيق التشريعي عقوبةً وتربيةً.

ومن آثار الظلم أنه قد يحرم صاحبه من طيبات كانت مباحةً له. فالذنوب لا تأخذ من الإنسان آخرته فقط؛ قد تضيق عليه دنياه، وتغلق أبواباً كان يمكن أن يدخل منها إلى السعة.

ثم لم يقتصر جرمهم على ضلالهم: ﴿وَبَصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

حملوا غيرهم على الضلال، ومنعوا الناس من طريق الهداية. ومن صد إنساناً عن الحق حمل وزراً يتجاوز نفسه إلى آثار كلمته وموقعه.

الآية ١٦١

﴿وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦١].

تعود السورة إلى المال مرةً أخرى؛ لأن فساد العقيدة لا يبقى فكرةً في الرأس، بل يظهر في السوق والعلاقات.

أخذوا الربا مع أنهم نُهوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل. فالمشكلة ليست غياب المعرفة، بل تقديم الربح على الأمر.

الربا يستثمر حاجة المحتاج ليزيد ثروة القادر، فيتحول الزمن نفسه إلى أداة تضاعف الدين فوق ظهر الضعيف. وكلما عجز عن السداد زاد حمله، حتى تصبح حاجته بابًا لاستعباده.

ثم عممت الآية: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾.

يدخل فيه الغش والرشوة والخيانة والتحايل وكل طريق يجعل المال ينتقل دون حق.

ولم تقل: أعددنا لهم جميعًا، بل: ﴿لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾.

﴿مِنْهُمْ﴾ تمنع التعميم، وتربط الوعيد بمن ثبت على الكفر، لأن في أهل الكتاب من آمن واستقام كما ستبين الآية التالية.

الآية ١٦٢

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

بعد صفحات من نقد الانحراف تأتي كلمة العدل: ﴿لَكِنِ﴾.

لا يطغى ذنب الأكثرين على فضل الصادقين. في أهل الكتاب راسخون في العلم حملهم علمهم إلى الإيمان، ولم يجعلوه سورًا يحمي الموروث من الحقيقة.

الراسخ في العلم ليس من كثرت محفوظاته وحدها، بل من ثبته علمه أمام الهوى، وقاده إلى الاعتراف بالحق ولو جاء من خارج جماعته.

(يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ).

لم يروا القرآن عدوًّا للوحي السابق، بل تصديقًا لأصله. فالوحي الحق لا يخاف الوحي الحق.

ثم تجمع الآية الإيمان بالصلاة والزكاة واليوم الآخر، وتعددهم أجرًا عظيمًا. ومن اللطائف النحوية والبلاغية مجيء (وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ) بالنصب على المدح عند جمهور النحاة؛ كأن السياق توقف ليمدح إقامة الصلاة ويخصها بالعناية.

الآية ١٦٣

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) [النساء: ١٦٣].

تضع الآية رسالة محمد ﷺ داخل موكب الوحي الطويل:

(كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ).

فالقرآن ليس حادثة بلا جذور، ومحمد ﷺ ليس بدعًا من الرسل. المصدر واحد وإن تنوعت الشرائع والتفاصيل.

ثم تتوالى أسماء الأنبياء؛ كل اسم يفتح تاريخاً من الابتلاء واليقين:

إبراهيم الذي واجه الوثنية وحده.

وإسماعيل الذي صدق الوعد.

وإسحاق ويعقوب والأسباط.

وعيسى الذي اختلف الناس فيه.

وأيوب الذي صار الصبر لغة جسده.

ويونس الذي نادى في الظلمات.

وهارون شريك موسى في الرسالة.

وسليمان الذي لم تفسده المملكة.

وداود الذي جمع النبوة والملك وأوتي الزبور.

تختلف القصص، لكن النهر واحد: وحي من الله يهدي الإنسان إلى ربه.

الآية ١٦٤

(وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء: ١٦٤].

ليس كل الرسل المذكورين في القرآن. قص الله بعضهم، وسكت عن آخرين.

وهذا يربي العقل على التواضع أمام حدود المعرفة؛ فما لم يقصصه الله لا يملك الإنسان أن يملأ فراغه بالخيال ثم ينسبه إلى الوحي.

وقد أرسل الله رسلاً إلى أمم لا نعرف أسماءهم؛ فعدله ورحمته أوسع من التاريخ الذي وصل إلينا.

ثم خص موسى عليه السلام:

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

أكد المصدر حقيقة التكليم؛ فكلم الله موسى كلامًا حقيقياً يليق بجلاله، ليس ككلام المخلوقين ولا مماثلاً له، من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل. فالله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وإثبات ما أثبتته الله لنفسه من تمام التنزيه، كما أن التنزيه الحق لا يكون بنفي ما أخبر به عن ذاته.

الآية ١٦٥

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

تجمع وظيفة الرسل بين البشارة والإنذار.

البشارة تمنع الطريق إلى الله من أن يتحول إلى خوف بلا رجاء، والإنذار يمنع الرجاء من أن يصبح أمنية بلا عمل.

فالإنسان يحتاج إلى جناحين: يرجو رحمة الله فيمضي، ويخشى حسابه فلا ينحرف.

ثم تكشف الآية حكمة إرسال الرسل: ﴿لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

لا يواخذ الله الخلق حتى تقوم عليهم الحجة، ويصل إليهم البيان على الوجه الذي يعلمه سبحانه. فالجزاء الإلهي قائم على عدل لا يظلم مثقال ذرة.

وبعد الرسل لا يستطيع الإنسان أن يقول: لم أعرف الطريق. لقد جاءت البشارة والندارة، وبقي اختياره.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

عزيز ينفذ حكمه، حكيم لا يقيم الحجة إلا في موضعها ولا يعاقب بغير عدل.

الآية ١٦٦

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾
[النساء: ١٦٦].

قد يرفض البشر شهادة الرسالة، لكن الله يشهد بما أنزل إلى نبيه: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾.

نزل القرآن متلبساً بعلم الله، مشتملاً على ما شاء أن يعلم به عباده، صادراً عن علم محيط لا يعتريه جهل ولا نسيان.

وهذا سر اتساقه وقدرته على كشف الإنسان؛ فالذي أنزله هو الذي خلق النفس ويعلم مداخلها وضعفها ومصيرها.

وتشهد الملائكة كذلك، لكن شهادتهم تابعة لشهادة الله، لا تزيدها صدقاً؛
ولذلك تختتم الآية: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

إذا شهد الله للقرآن، فلا يضره أن ينكره الناس، ولا يحتاج المؤمن إلى أن
يجعل قبول البشر شرطاً لطمأنينته إلى الوحي.

الآية ١٦٧

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧].

لم يكتفوا بالكفر، بل صدوا غيرهم عن سبيل الله. ولهذا صار الضلال بعيداً؛
لأن صاحبه لا يتحرك وحده في الطريق الخاطئ، بل يقيم الحواجز على
طريق الآخرين.

قد يكون الصد بالقوة، أو بالتشويه، أو بالسخرية، أو باستعمال العلم لإثارة
الشبهات التي يعرف صاحبها جوابها.

ومن أفسد وعي غيره لم يعد ذنبه محصوراً في حياته؛ قد تستمر كلمته بعد
موته، ويظل يحمل من آثارها.

الضلال الفردي جرح، أما تحويله إلى مشروع فيصنع جروحاً ممتدة.

الآية ١٦٨

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا) [النساء: ١٦٨].

جمعوا الكفر والظلم، وأصروا عليهما حتى الموت. فليسوا أهلاً للمغفرة ولا للهداية إلى طريق النجاة.

ولا تعني الآية أن التوبة في الحياة لا تُقبل منهم؛ فقد تقرر في القرآن أن من تاب وآمن وعمل صالحاً وجد الله غفوراً رحيمًا. إنما الحديث عن الذين استقروا على الكفر والظلم حتى انتهى زمن الاختيار.

وقد يظلم الكافر غيره، ويظلم نفسه أعظم الظلم بحرمانها من معرفة ربها. والكفر لا يبقى تصورًا محايدًا؛ تظهر آثاره حين ينفصل الإنسان عن الحساب ويجعل قوته مرجعه الأخير.

الآية ١٦٩

(إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) [النساء: ١٦٩].

نُفِيت عنهم طرق الهداية والنجاة، واستثنى طريق جهنم؛ لأنه الطريق الذي أوصلتهم إليه اختياراتهم.

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا).

انتهى زمن التحول. كانوا في الدنيا يستطيعون الانتقال من الكفر إلى الإيمان، فلما ماتوا عليه صار الطريق مصيرًا.

(وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا).

لا يعجزه جمعهم ولا حسابهم ولا إنفاذ حكمه عليهم. وكثرة البشر لا تشوش العلم الإلهي، ولا تضيع فردًا في زحام الحساب.

الآية ١٧٠

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء: ١٧٠].

كما بدأت السورة بنداء الناس، تعود إلى النداء العام: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ).

فرسالة محمد ﷺ ليست خطابًا محليًا لجماعة أو زمن، بل رسالة للإنسان.

(قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ).

الرسول جاء بالحق، لكنه لم يصنعه من عند نفسه؛ جاء به (مِنْ رَبِّكُمْ)، من الذي خلقكم ورباكم ويعلم ما يصلحكم.

ثم جاءت الدعوة: (فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ).

إيمانكم خير لكم أنتم، لا زيادة في ملك الله. وإن تكفروا فلن تنقصوا من ملكه شيئًا؛ فله ما في السماوات والأرض.

(وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا).

يعلم من استجاب ومن أعرض، وحكيم في إرسال الرسول وفي الشرع الذي جاء به والجزاء الذي رتبته عليه.

الآية ١٧١

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

الغلو تجاوز للحد في التعظيم. وقد يبدأ بمحبة صادقة، ثم تفقد المحبة ميزانها، فترفع المخلوق فوق منزلته.

﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾.

لا يُعَظَّمُ الله بالكذب عليه، ولا يُكْرَمُ الأنبياء برفعهم إلى مقام الألوهية. فحسن القصد لا يجعل العقيدة الباطلة حقًا.

ثم تقرر الآية منزلة المسيح: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾: عبد اصطفاه الله وأرسله.

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾: خلقه بكلمة «كن» من غير أب.

﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾: روح مخلوقة من عند الله، أضيفت إليه إضافة تشريف، لا

أنها جزء من ذات الله، تعالى الله عن التجزؤ والحلول.

ثم تنهى عن عقيدة التثليث: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾.

وتقيم التوحيد واضحًا: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾.

الوحدانية تنزه الله عن الشريك والولد والحاجة. فالولد إنما يحتاج إليه المخلوق لضعفه وامتداد نوعه، والله الحي القيوم الغني لا يلحقه نقص ولا فناء.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ومن كان المسيح داخل ملكه وخلقه، فلا يكون إلهاً معه.

الآية ١٧٢

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

العبودية ليست انتقاصاً للمسيح، بل أشرف مقاماته.

فالإنسان قد يظن كلمة «عبد» نقصاً؛ لأنه عرف عبودية البشر للبشر بما فيها من إذلال. أما العبودية لله فهي تحرر كامل من كل ما سواه.

المسيح لا يستنكف أن يكون عبداً لله؛ لأن العارف بعظمة ربه لا يرى في السجود له نقصاً. وكذلك الملائكة المقربون لا يحملهم قربهم على الاستكبار.

كلما ارتفعت معرفة العبد بالله، ازداد عبوديةً له، لا خروجاً عن مقامه.

أما من يستنكف ويستكبر، فسيُحشر إلى الله مع الخلق جميعاً. ظن أن العبودية تحط من قدره، فإذا الحشر يهدم وهم استقلاله ويعيده إلى حقيقة فقره.

الآية ١٧٣

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) [النساء: ١٧٣].

أمام العبودية طريقتان: إيمان وعمل صالح، أو استنكاف واستكبار.

أما المؤمنون فيوفيه الله أجورهم؛ فلا ينقص حسنةً، ثم يزيدهم من فضله. فالعدل يوفي، والفضل يزيد.

إن الجنة ليست مجرد أجر محسوب على قدر العمل المحدود، بل زيادة من فضل الله تتجاوز الحساب.

وأما المستكبرون فيعذبون بسبب استنكافهم. فقد ظنوا أنهم يحررون أنفسهم من العبودية لله، فإذا هم يفقدون الولي والنصير.

من رفض أن يكون عبدًا لله لم يخرج من العبودية، بل صار عبدًا لهواه أو لغيره من الخلق. والفرق أن عبودية الله ترفعه، وعبودية ما سواه تستهلكه ثم تتخلى عنه.

الآية ١٧٤

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) [النساء: ١٧٤].

للمرة الثالثة في هذا السياق يأتي النداء العام: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ).

لقد جاءكم برهان يواجه العقل، ونور يكشف الطريق. والبرهان هو الرسول ﷺ وما جاء به من الحجج، والنور المبين هو القرآن الذي يخرج الإنسان من ظلمات الشرك والهوى.

البرهان يزيل الشبهة، والنور يبديد الظلمة. فالإنسان لا يحتاج إلى دليل يعرف به الحق فقط، بل إلى نور يستطيع به أن يسير نحوه.

قد يعرف المرء الحكم، لكنه لا يرى موضعه في ظلمات المصلحة والعادة والخوف. فيأتي القرآن برهاناً للعقل ونوراً للحياة.

ووصفه بالنور يعني أن الخلل ليس دائماً في غياب الطريق، بل في غياب الرؤية. قد يكون اليتيم أمامك، لكن الطمع يجعلك لا ترى حقه. وقد يكون المظلوم قريباً، لكن العصبية تحجبه عن عينك.

القرآن يعيد للعين أخلاقها.

الآية ١٧٥

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ
إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) [النساء: ١٧٥].

الاعتصام إمساك بما يمنع السقوط. والإنسان في سورة النساء محاط بأسباب
الميل: شهوة المال، وعصبية القرابة، وخوف القوة، وإغراء الغنيمة، وفتنة
النفاق.

لن ينجو بقوة نفسه وحدها؛ يحتاج إلى الاعتصام بالله.

والاعتصام ليس خروجًا من الحياة، بل دخول إليها ممسكًا بالميزان: تدخل
السوق دون أن يشتريك المال، والبيت دون أن تفسدك السلطة، والسياسة دون
أن يبتلعك النفوذ، والخصومة دون أن يقودك البغض.

ثم تأتي الثمرة: (فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ).

لم تقل: يعطيهم رحمة فقط، بل يدخلهم في رحمة؛ كأن الرحمة محيط بأويهم،
لا عطية عابرة تمر بأيديهم.

ثم يهديهم إليه صراطًا مستقيمًا. فغاية الطريق ليست النعمة منفصلة عن
المنعم، بل الوصول إلى رضوان الله وقربه الذي يليق بجلاله.

الآية ١٧٦

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [النساء: ١٧٦].

تختم السورة بسؤال في الميراث: (يَسْتَفْتُونَكَ).

كما سألوا عن النساء في الآية ١٢٧، يسألون عن الكلاله؛ وهي من مات وليس له ولد ولا والد عند جمهور أهل العلم.

فيأتي الجواب: (قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ).

مرة أخرى لا تُترك القسمة للحدس الاجتماعي ولا لقوة الورثة، بل يأتي البيان من الله. تحدد الآية نصيب الأخت الواحدة، والأختين، والإخوة رجالاً ونساءً في الصور المبينة.

واللافت أن السورة، بعد أن جالت في النفاق والحرب وأهل الكتاب والمسيح والرسل والبرهان والنور، تعود إلى بيت مات فيه إنسان وترك وراءه إخوة وأخوات.

فالقضايا الكبرى لا تلغي دقة الحق الفردي، وبناء الأمة لا يبرر إهمال مسألة صغيرة في تركة أسرة.

ثم تقول: (يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا).

البيان وقاية من الضلال. فالإنسان قد يضل في العقيدة، وقد يضل كذلك في رقم مالي يحرم به أخته أو أخاه.

إن المجتمع لا ينحرف فقط حين يتبنى فكرةً كبرى باطلة، بل قد ينحرف حين يخطئ في قسمة بيت، ويأكل أخ نصيب أخته، وتترك امرأة بلا حق.

ثم تأتي الكلمة الأخيرة في السورة: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

بدأت السورة بالرقابة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾،

وانتهت بالعلم: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وبين الرقابة والعلم تحركت الحقوق كلها. فالذي شرع الأنصبة يعلم الحاجات، والذي أمر بالقسط يعلم الهوى، والذي حرم الخيانة يعلم السر، والذي فتح التوبة يعلم صدق العائد.

خاتمة الفصل

من الميثاق الغليظ إلى البرهان والنور

بدأ الفصل بصوت المظلوم، ثم فتح له باب العفو إن قدر، وانتقل إلى وحدة الإيمان بالرسول، وكشف صوراً من نقض الميثاق والغلو والجفاء، وأثبت نجات المسيح ورفعته، ثم جمع الأنبياء في نهر الوحي الواحد.

وفي ختام الطريق جاء البرهان والنور؛ لأن الإنسان يحتاج إلى كليهما:

برهان يمنع عقله من الانخداع،

ونور يمنع قلبه من الضياع.

فالبرهان بلا نور قد يتحول إلى معرفة باردة لا تقود إلى العمل، والنور الذي لا يقوم على البرهان قد يلتبس على صاحبه بالوهم. أما القرآن فيجمع قوة الحجة وهداية الطريق.

ثم عادت السورة إلى الميراث، لتربط أعلى حقائق العقيدة بأدق الحقوق المالية. فالذي يؤمن بأن الله واحد، وأن محمدًا رسوله، وأن القرآن نوره، ينبغي أن يظهر إيمانه في الطريقة التي يقسم بها مالا تركه ميت.

إن العقيدة التي لا تبلغ اليد لم تبلغ الحياة بعد.

خاتمة الرحلة

سُورَةُ النَّسَاءِ: هُنْدَسَةُ الْعَدْلِ وَبِنَاءِ الْإِنْسَانِ الْمُؤْتَمَنِ

بدأت سورة النساء من الحقيقة التي تسبق كل تفاوت: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

وانتهت بالحقيقة التي تحيط بكل حق: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

بين النفس الواحدة والعلم المحيط قامت السورة كلها.

فإذا كان البشر من نفس واحدة، فلا يحق للقوي أن يستبيح الضعيف. وإذا كان الله رقيبًا عليماً، فلا تضيع الأمانة في الخفاء. وإذا كان الزواج ميثاقاً غليظاً، فلا تتحول العشرة إلى امتلاك. وإذا كانت الأنصبة مفروضة من الله، فلا يملك

العرف أن يحرم امرأة أو يتيمًا. وإذا كان الحكم أمانةً، فلا يعطى لغير أهله. وإذا كان الرسول مرجعًا، فلا يكون الهوى هو الحاكم المستتر. وإذا كان المستضعف يدعو، فلا يجوز للقوة أن تصم أذنها عن دعائه.

هكذا لا تبدو موضوعات السورة متفرقة. إنها خيوط نُسجت حول سؤال واحد:

كيف يصبح الإنسان آمنًا من ظلم الإنسان؟

تجيب السورة: حين يكون كلاهما عبدًا لله.

فاليتم لا يأمن من الوصي لأن اليتيم قوي، بل لأن الله يراقب الوصي. والمرأة لا تأخذ حقها لأن المجتمع تفضل عليها، بل لأن الله فرضه. والمظلوم لا يُنصف لأن القاضي يحبه، بل لأن القاضي مأمور بالعدل. والمستضعف لا يُنصر لقوة نفوذه، بل لأن الله جعل نصرته قضيةً أخلاقية. إنها سورة تنقل الضعيف من هامش الشفقة إلى مركز التكليف.

لا تقول للقوي: تكرم عليه بما شئت.

بل تقول: أدِّ إليه ما له.

وهذا فارق عظيم؛ فالشفقة تبقى الضعيف منتظرًا مزاج القوي، أما الحق فيجعل القوي واقفًا تحت أمر الله.

سورة المرايا

سميت السورة بالنساء، لكنها في الحقيقة تحاكم أخلاق المجتمع كله. فالمرأة تكشف طريقة الرجل في استعمال القوامة، واليتيم يكشف حقيقة الوصي، والمال يكشف قلب الوارث، والخصومة تكشف الشاهد، والحرب تكشف المقاتل، والسلطة تكشف الحاكم، والصلاة تكشف المنافق.

إنها سورة المرايا.

كل ضعيف فيها مرآة لقوي. لا تسأل المرأة عما تقوله عن نفسك، بل تكشف ما تفعله حين تستطيع الظلم ولا يمنعك إلا الله.

قد يصلي الإنسان طويلاً، ثم تفشل عبادته في أول مال يتيم يقع تحت يده. وقد يتحدث عن الشريعة، ثم يرفض حكمها في ميراث أخته. وقد يطالب الناس بالطاعة، وهو لم يؤد الأمانة التي سبقت الطاعة في ترتيب السورة.

سورة النساء ترد التدين إلى امتحانه الأخلاقي.

فليس المتدين حقاً من كثرت على لسانه المفردات الدينية، بل من صار الضعيف أكثر أمناً حين اقترب منه.

القوة التي لا تفترس

من أول السورة إلى آخرها تتحرك القوة تحت الرقابة:

قوة الوصي على اليتيم.

وقوة الزوج داخل البيت.

وقوة الوارث أمام المرأة.

وقوة الغني أمام الفقير.

وقوة الحاكم أمام الناس.

وقوة المقاتل أمام من ألقى السلام.

وقوة الجماعة أمام الفرد المتهم.

وفي كل موضع تسأل السورة:

ماذا صنعت بما أُعطيت؟

لم تحرم القوة، لأن الحياة تحتاج إليها، لكنها نزلت عنها وهم الملك المطلق.
كل قدرة أمانة مؤقتة، وكل سلطة يرافقها سؤال.

والقوة حين تخضع لله لا تذلل، بل تتطهر. تصبح درعاً لا سوطاً، ونجدة لا
افتراساً، وحماية لا استحواداً.

أما حين تنفصل عن العبودية، فقد تبدأ بأكل مال يتيم، وتنتهي بأكل أمة كاملة.

المظلوم لا يحتاج إلى موعظة بدل حقه

لا تقف السورة أمام اليتيم لتقول له: اصبر على من أكل مالك، بل تتجه إلى الوصي: ﴿وَأَثُوا الِيتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾.

ولا تكتفي بمطالبة المرأة باحتمال الحرمان، بل تعلن: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾.

ولا تقول للمستضعفين في القرية الظالمة: تكيفوا مع واقعكم، بل تسأل القادرين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾.

إنها تعيد التكليف إلى الجهة التي تملك القدرة على رفع الظلم.

الصبر عبادة عظيمة، لكنه لا يُستعمل لتخدير المظلوم وإعفاء الظالم من رد الحقوق. فالمظلوم مأمور بالصبر، والظالم مأمور بالتوبة، والمجتمع مأمور بالنصرة والعدل.

ولا يجوز أن نأخذ التكليف الأسهل علينا، فنحدث الضحية عن الصبر وننسى ما علينا نحن.

التدين الذي يدخل الحسابات

يتكرر المال في السورة تكرارًا لافتًا: مال اليتيم، والصدّاق، والميراث، والنفقة، والتجارة، والدية، والغنيمة، والربا، والأكل بالباطل.

وكأن السورة تريد أن تقول إن المال ليس شأنًا خارجيًا بعيدًا عن الروح؛ إنه يكشف ما في القلب.

قد يحب الإنسان أخته حتى تأتي التركة.
 وقد يزعم الرحمة باليتيم حتى يقع ماله تحت يده.
 وقد يتحدث عن النزاهة حتى يلوح له ربح لا يراه الناس.
 وقد يعلن تكريم المرأة حتى تطلب نصيبها المفروض.
 المال لا يصنع جميع الأخلاق، لكنه يكشف كثيرًا منها.
 فالزهد الحقيقي لا يُعرف حين لا تملك، بل حين تملك القدرة على الأخذ ثم
 يمنعك الحق.
 ولهذا أدخلت سورة النساء الحساب المالي في قلب الإيمان. جعلت قسمة
 التركة حدودًا لله، وأكل مال اليتيم نارًا، والتجارة عن تراض طريقًا مشروعًا،
 والإنفاق أحد أسس القوامة.
 الدرهم قد يكون عبادةً أو مظلمة، بحسب الطريق الذي جاء منه واليد التي
 استقر فيها.

الإنسان المؤتمن

الإنسان الذي تريد السورة بناءه ليس ضعيف الإرادة ولا منسحبًا من الحياة.
 إنه قوي، لكن قوته مأمونة.
 يملك المال ولا يملكه المال.
 ويحب أقرباءه دون أن ينصرهم في الظلم.
 ويطيع أولي الأمر دون أن يجعلهم أربابًا.

ويقاتل دون أن يستبيح الدم.
ويخاصم دون أن يلوي الحقيقة.
ويصلي لله دون أن يحتاج إلى عيون الناس.

إذا كان الحق لأخته أعطاها.
وإذا كان على نفسه اعترف به.
وإذا كان مع خصمه شهد له.
وإذا أخطأ رجع.
وإذا قدر عفا حين يكون العفو إصلاحًا.
وإذا استضعف إنسان تحركت فيه مسؤولية القوة.

هذا الإنسان هو الوحدة الأولى في المجتمع العادل. فلا تقوم حضارة القسط
بكثرة النصوص وحدها، بل بالبشر الذين يقبلون أن تحكمهم النصوص حين
تمس مصالحهم.

وآخر ما تقوله السورة للقلب:

لا تقل إنك قوي حتى نرى ماذا صنعت بالضعيف.
ولا تقل إنك أمين حتى نرى فعلك حين غاب الرقيب.
ولا تقل إنك عادل حتى يكون الحق على نفسك.
ولا تقل إنك مطيع حتى يخالف الحكم هوأك.
ولا تقل إنك نصير للمستضعفين حتى يتحسن واقعهم، لا صورتك.

إن كل قوة أمانة، وكل حق عبادة، وكل مظلمة ستُعرض، والله كان علينا رقيباً.

فهرس الكتاب

الصفحة	المحتوى	الرقم
٣	المقدمة التمهيدية: سورة النساء؛ حين يدخل العدل إلى الغرف المغلقة	١
١٧	الفصل الأول: من نفس واحدة؛ من جذر الخلق إلى حماية الضعفاء	٢
٣٨	الفصل الثاني: الميراث وحدود الله؛ حين يقسم الوحي المال ويفتح للمذنب باب العودة	٣
٦١	الفصل الثالث: البيت الذي يبينه الميثاق الغليظ؛ من حرية المرأة إلى مسؤولية القوامة وإصلاح الشقاق	٤
٨٩	الفصل الرابع: من عبادة الله إلى عدالة المجتمع؛ حين يخرج التوحيد من القلب ليصير رحمةً وطهارةً وموقفًا	٥
١١٣	الفصل الخامس: أدوا الأمانات؛ من عدالة الحكم إلى تسليم القلب	٦
١٣٠	الفصل السادس: المنافقون وامتحان القوة؛ حين تكشف الشدائد ما تخفيه القلوب	٧
١٥٤	الفصل السابع: حرمة الدم وهندسة النجاة؛ من التبيين قبل السلاح إلى الصلاة في قلب الخوف	٨
١٧١	الفصل الثامن: العدل الذي لا يحمي الخائنين؛ من أمانة الحكم إلى كشف وعد الشيطان ووهم الأمانى	٩
١٩٤	الفصل التاسع: القسط الذي يبدأ من النفس؛ من حقوق النساء واليتامى إلى كشف الدرك الأسفل من النفاق	١٠
٢١٨	الفصل العاشر: البرهان والنور؛ من صوت المظلوم إلى وحدة الوحي واكتمال الميثاق	١١
٢٤٦	خاتمة الرحلة: سورة النساء؛ هندسة العدل وبناء الإنسان المؤمن	١٢

